التعاليق البهية على

المنظومة التائية

لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الغرناطي الإلبيري

رحمه الله تعالى

شرحها فضيلة الشيخ

أبو يوسف مصطفى بن محمد مبرم اليمني

حفظه الله تعالى



التعاليق البهية على

المنظومة التائية

لأبي إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الغرناطي الإلبيري

رحمه الله تعالى

فرغته طالبة علم
ترجو الأجر من الله وحده

هذا التفريغ لم تتم مراجعته واعتماده من طرف الشيخ

فهرست

تقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعــد:

فبعد الفراغ من التَّعليق والشَّرح على متن «**القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى**» للعلَّامة ابن العثيمين - عليه رحمة الله -، وقد تم الكتاب بفضل منَ الله جلَّ وعلا وحده لا شريك له؛ نشرع إن شاء الله تعالى ابتداء من هذه اللَّيلة في درسين مقترنين أو قُل متتابعين ببعضهما البعض، لا غنى لطالب العلم عنهما كما أنَّه لا غنى له عن شيء من العلم.

والدَّرس الأوَّل سيكُون في شرح منظومة المقرئ والفقيه والأديب والشَّاعر أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري الأندلسي التُّجيبي - رحمه الله تعالى -، وستكون مُدَّة الدَّرس عشرون دقيقة، ثمَّ بعد ذلك نأخذ الدَّرس الثاني في شرح متن «**الآجرُّومية**» للعلَّامة المقرئ محمد بن آجرُّوم الصنهاجي - عليه رحمة الله -؛ وهذه الدُّروس تنعقد - بفضل الله تبارك وتعالى ونعمته ومنَّته - على غرفة إمام دار الهجرة العلمية، شكر الله للقائمين عليها وجعلنا وإياهم مفاتيح خير مغاليق شر.

فنشرع بمنظومة العلَّامة الأَلبيري - رحمه الله تعالى -، وجرت العادة كما نبَّهنا على ذلك مرارًا على ذكر شيء من ترجمة المصنِّف - وها هنا نقول النَّاظم، - وعلى ذكر نبذة متعلقة بالمصنَّف - وهنا نقول بالنَّظم -، أمَّا الأمر الأوَّل فقد نبَّهنا عليه مرارًا لأنه من حق المصنِّف أو النَّاظم علينا، ولأَن معرفة تراجم هؤُلاء العلماء فيها اقتداء وائْتِساءٌ بهم - رحمهم الله تعالى - في علمهم وصبرهم وما يتعلق بذلك، فإذا تقرَّر هذا فإنَّ الأمر الثَّاني راجع إلى الكلام على النَّظم أو المصنَّف فيُذكر أهمّ ما اشتمل عليه وما قصده المصنِّف من تصنيفه أو النَّاظم من نظمه.

وقبل هذا كلِّه أيضًا - أي قبل الكلام على النَّاظم وعلى نظمه - لابد من أخذ نبذة مهمة عن الأدب وأهميَّته واعتناء الإسلام به للمسلمين عمومًا ولطالب العلم خصوصًا، فإنَّ طالب العلم لابد وأن يتصوَّر أنَّ علمه بقدْر أدبه، وأنَّه بقدر ما يكونُ عنده من الأَدب للعلم وفي العلم يكون عندَه منَ العلم، وهذا أمر مهم وإنَّما تذهب بركة العلم بسوء أدب حامله أو يصرف العلم عن

طالبه بسبب عدم أدبه، فإذا كان اعتناء طالب العلم بالأدب وبمعرفته وبأَهمِّيته فإنَّه يُحصِّل خيرًا كثيرًا في ذلك، ولا شك أنَّ كلَّ عاقل يأخذ من ذوي الخبرة ما يجعله يسلك في سبيلهم، ولا شك أنَّ أهل الخبرة في هذا المقام هم السَّلف؛ ومن رأى اعتناءهم بالأدب في العلم وحثهم عليه وتأديب طلَّابهم عليه وحملهم عليه رأى أنهم لم ينالوا تلك الدَّرجات في العلم إلَّا بالأدب فيه؛ فإذا أردنا أن نسير على طريقهم وأن نسلك دربهم المطروق فإنَّنا لابد وأن نأخذ طرفا من نصائحهم، ولهذا كانوا يعتنون بتأديب أبنائهم وتأديب أنفسهم قبل ذلك أكثر من أي شيء.

ذكر الرَّاغب الأصفهاني أنَّ المنصور بعث إلى من في الحبس من بني أُمية يقول لهم: (**ما أشدّ ما مرَّ بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: ما فقدنا من تربية أولادنا**)، ولهذا كان السَّلف - رحمهم الله - يتخذون لأَبنائهم مؤدِّبا ويسمُّونه بالمؤدب، واِشتهر بعض أهل العلم بأَنَّه مؤدِّب الأولاد، أو بعضهم اشتهر كابن أبي الدنيا بأَنَّه مؤدِّب أولاد الخلفاء، وربما بعضهم يُلقَّب بهذا اللَّقب يُقال فيه المؤدِّب.

لماذا نذكر هذه التَّقدمة ؟ لأنَّ منظومة الأَلبيري متمحِّضة في آداب طالب العلم وحمل نفسه على الأدب فيه وعدم التَّهاون في الأدب - أي في الأدب مع العلم -، وابن القيِّم - رحمه الله تعالى - يقول:(**الأدب ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه وتعالى، وأدب مع رسُول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وشرعه، وأدب مع خلقه**).

كان ابن المبارك - رحمه الله تعالى - يقول: (**من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السُّنن، ومن تهاون بالسُّنن عُوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة**)[1].

وكذلك يقول رويم بن أحمد البغدادي لابنه: (**يا بني اِجعل عملك ملحًا وأدبك دقيقًا**). أراد أنه لابُدَّ من الاستكثار من الأدب لأنه ثمرة العلم وحقيقة العلم وروح العلم، ولهذا قال البُوشنجي: (**من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اِقتحم أن يكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم**).

وكان النَّخعي - رحمه الله - يقول: (**كانوا إذا أتوا رجلا ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وصلاته وإلى حاله ثمَّ يأخذون عنه**)، ولهذا ذكروا في ترجمة الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - أنَّه يجتمع في مجلسه خمسة آلاف أو يزيدون، بعضهم يكتب الحديث قيل خمسمائة، والباقون يتعلَّمون منه حسن الأدب والسَّمت.

١- ذكره الحافظ ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «مدارج السالكين».

ولهذا جاء في ترجمة أحد طلاب أحمد أنَّه حضره عشر سنين قال: (**ما كتبت سوداء على بيضاء إلا أنِّي انظر إلى أدب أحمد**).

قال ابن عباس رضي الله عنه: (**اطلب الأدب فإنه زيادة في العقل، ودليل على المروءة، ومؤنس في الوحدة، وصاحب في الغربة، ومال عند القِلَّة**).

كان الإمام مالك - رحمه الله تعالى - يقول: (**كانت أُمِّي تُعمِّمني وتقول: اذهب فخذ من أدب ربيعة قبل علمه**).

وابن المبارك يقول: (**طلبت العلم فأصبت منه شيئًا وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا**[1])؛ وكان ابن المبارك أيضًا - رحمه الله - يقول: (**نحن إلى قليل من الأدب أحوج منَّا إلى كثير من العلم**).

ولما سُئل الحسن البصري - رحمه الله - عن أنفع الأدب فقال: (**التفقه في الدِّين، والزُّهد في الدُّنيا، والمعرفة بما لله عليك**)، ولهذا قال الخطيب البغدادي - رحمه الله -: (**والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدبًا، وأشدَّ الخلق تواضعًا، وأعظمهم نزاهةً وتدينًا، وأقلهم طيشًا وغضبًا، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآدابه، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه وطرائق المحدثين ومآثر الماضين فيأخذ بأجملها وأحسنها ويصدف عن أرذلها وأدونها**)[2].

سفيان بن عُيينة - رحمه الله - يقول: (**إنَّ رسول الله هو الميزان الأكبر فعليه تُعرض الأشياء على خُلقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق وما خالفها فهو الباطل**).

كان الإمام مالك - رحمه الله - يقول: (**إنَّ حقا على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية وأن يكون متبعا لأثر من مضى قبله**).

هكذا جاءت آثار كثيرة عن السلف - رحمهم الله - في ضرورة الاعتناء بالأدب والتَّخلق بأخلاق العلم وحمل النفس على الأَدب في العلم، ولهذا صنَّفوا الكُتب الكثيرة، «الآداب الشَّرعية» لابن مفلح، «غذاء الألباب» للسفاريني، «منظومة ابن عبد القوي»، «منظومة الشيخ حافظ حكمي الميمية»، وهذه المنظومة التي نحن بصددها، وقلَّ أن تجد عالما من العلماء إلَّا وصنف كتابا مستقلا أو نظم نظمًا يتعلق بآداب طالب العلم، ولازال العلماء يصنفون في ذلك المصنفات الكثيرة؛

١- يعني ذهبوا.
٢- في كتابه «الجامع لآداب الراوي والسَّامع».

لماذا هذا كله؟ لأنَّ المعرفة بهذا فيها حث على العلم والحرص عليه وعدم الاستغناء بشيء عنه، ولهذا من روائع منظومة الشيخ العلامة حافظ حكمي – رحمه الله – أنَّه قال:

يا طالِبَ العِلمِ لا تَبْغِي بــه بَـدَلا ... فقَدْ ظَـفِـرْتَ ورَبِّ الـلَّـوْحِ والْقَلَمِ

وعَظِّمِ العِلمَ واعْــرِفْ قَـدْرَ حُـرْمَـتِـهِ ... فِي الـقَـوْلِ والفِعْلِ والآدابَ والقِيَمِ

وهي منظومة رائعة رائقة مشهورة ومطبوعة ومنشورة. وما نحن بصدد الكلام عليه هو منظومة العلَّامة الشَّهير أبي إسحاق الألبيري الأندلسي –رحمه الله تعالى –، وهذا العلَم وإن كان قد ترجمت له كثير من أهل العِلم وإن كان لم يترك الكثير من المصنَّفات إلَّا أنَّ شِعره كما ذكر المترجمون له كان مجموعًا ومعروفًا.

منسوب إلى إِلبيرة ويُنسب إلى غرناطة ويُنسب إلى حِسن العُقاب ويُنسب إلى آخر نسبه وهو التُّجيبي لأنَّه يرجع إلى قبيله تُجيب من اليمن، يُكنى بأبي إسحاق، واسمه إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجيبي – رحمه الله تعالى وغفر له –، فقيه ومُقرئ وعالم في زمانه أخذ القراءات وعُرف بها، من مشاهير شُيوخه إمام السُّنة في زمانه الإمام ابن أبي زمنين فإنه من طلابه الذين أخذوا العلم عنه، وله رواية عنه وله أيضًا إجازة عنه كما ذكر المترجمون له – رحمه الله تعالى ورحم الجميع –.

وُلد – رحمه الله تعالى – ما يقرب من سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وتُوفي على ما ذَكر المترجمون أيضًا في سنة ستين وأربعمائة، وكان معاصرًا لأبي محمد بن حزم الظَّاهري، وكان في زمانه معروفًا وبعد زمانه وديوانه تداوله العلماء وأخذوه، وكان بعض أهل العلم – وإن كان لا يحضرني الآن – لا يُقرئ بعض طُلَّابه العلم حتى يحفظ المنظومة التائية – التي نحن بصدد الكلام عليها –، بل قال أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي في كتابه الماتع «ألف باء» قال: (**إن أبا عبد الله بن سودة كان يحمل طلبته على حفظها لجودتها**) أي على حفظ هذه المنظومة التي هي المعروفة بالتائية أو بمنظومة الآداب التي نظمها – رحمه الله تعالى –.

هذا ما يتعلق بالنَّاظم ولم تذكر كتب التَّراجم كثيرًا من كتبه ومصنفاته، وهذا ليس عيبًا في العالم، فإنَّ كثيرًا من العلماء لم يتركوا كتبًا ولم يؤلفوا ولم يصنفوا كما هو معلوم وليس هذا هو محل الكلام عليه.

يبقى الكلام على هذا النَّظم الَّذي نحن بصدد الكلام عليه؛ هذا النَّظم قيل إنَّ الألبيري – رحمه

الله – وصَّى به ابنه الذي يُكنى بأبي بكر وهذا قول مشهور، ولكن اعترض بعضهم بأنَّ هذا غير معروف ولا دليل عليه، ومعلوم أن قول النَّاظم – رحمه الله – في موضعين [أَبَا بَكْرٍ دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا]، في الموضع الأول في أولها، وفي آخرها: [أَبَا بَكْرٍ كَشَفْتَ أَقَلَّ عَيْبِي]، أنَّ هذا عند أهل المصطلح وأهل الحديث من المبهمات، فإنه قد أبهمه ولم يُبين من هو، فقال بعضهم أنَّه وصَّى بذلك ابنه واحتجَّ بشيء من المنظومة من الأبيات؛ وقال آخرون بل كان مُزاملًا له، كان أحد المزاملين له في العلم إلَّا أنَّه نال من عرض الألبيري – رحمه الله – وتكلَّم عليه بما يُشينه، فردَّ عليه الألبري بهذه الوصايا وهذه النَّصائح وهذه الذِّكرى وهذه العظة ولم يتطرق إلى ما دار بينه وبينه في الكلام، وهؤلاء يحتجُّون بقوله:

أَبَـا بَـكْـرٍ كَـشَـفْـتَ أَقَـلَّ عَـيْـبِـي ... وَأَكْـثَـرُهُ وَمُـعْـظَـمُـهُ سَـتَرْتَ

وَقُـلْ مَـا شِـئْـتَ فِي مِـنَ الْمَخَـازِي ... وَضَاعِـفْـهَـا فَـإِنَّـكَ قَـدْ صَدَقْـتَـا

إلى غيرها من الأبيات، ومن قال بأنَّ المراد ابنه وأنَّه وصَّاه بهذه الوصايا احتجَّ بمثل قوله:

وَلَمْ أَشْرَبْ حُمَيًّا أُمِّ دُفْرٍ ... وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

وَلَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ ... وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْهَمَلْتَا

وَلَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ ... وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا[1]

قالوا إنَّ هذا يدلُّ على التفاوت وهذا مُحتمل على التفاوت والبون بينهما في العمر وفي النسبة، وعلى كل حال فإنَّ هذا النَّظم قد اِشتمل علَى نصائح ووصايا عظيمة ستتبيَّن لكم من خلال سماعها وما يتعلق بالتعليق عليها.

هذه المنظومة من البحر الوافر عند العروضيين، واِشتملت على خمسة عشر ومائة بيت، ولهذا قال – رحمه الله تعالى – في آخر بيت:

وَقَـدْ أَرْدَفْـتُـهَـا تِـسْـعًـا حِـسَـانًـا ... وَكَـانَـتْ قَـبْـلَ ذَا مَـائَـةً وَسِـتَّـةً

هذا ما يتعلَّق بشيء من الاختصار حول هذا النَّظم الرَّائق، ومن تأمَّل في أبياته رأى أنَّه قد اِشتمل مِن الحكم والمواعظ والتَّذكير وبيان حال الدُّنيا وأهمية العلم والحكم والدُّرر الشَّيء الكثير،

١ – قد لا يورد الشيخ الأبيات تباعا لكنا رأينا أن نرتبها كما نظمها صاحبها الإلبيري رحمه الله.

فإذا اعتنى بها طالب العلم وسمعها ولو سماعًا فإنَّه سيُحصِّل منها إن شاء الله تعالى خيرًا كثيرًا.

ولابُدَّ وأن نرجع إلى ما بدأنا فيه فيما يتعلق بقضية الأدب وأهميَّته، فإنَّنا كلُّنا ذلك الرَّجل نحتاج إلى من يذكِّرنا بالأدب، إلى من ينبِّهنا على أهمِّية الأدب، إلى من يُعظِّم الأدب في نفوسنا، إلى من يُبين لنا حقيقة الأدب وكيف نتعامل مع الله عزَّ وجلَّ، وكيف نتعامل مع رسوله صلى الله عليه وسلَّم، كيف نتعامل مع بعضنا البعض، كيف يتعامل المتعلِّم مع العالِم والعالِم مع المتعلِّم، كل هذا ممَّا نحتاج إليه.

وإنَّما اِخترت أن يكون التَّعليق والشَّرح علَى هذه المنظومة لما سمعتم من أهمِّيتها ورونقيَّة ألفاظها وأبياتها ومواعظها ونصائحها، ولما يتعلَّق بذلك أيضًا أنَّه ليس لها شرح مطبوع معروف متداول وقلَّ من شرح هذه المنظومة؛ وسيكون الشَّرح والتَّعليق عليها بشيءٍ من الِاختصار مع الاعتناء بآثار السَّلف التي تدلُّ عليها.

ولن ندخل في الكلام عليها في هذه اللَّيلة – يعني على أبياتها –، بهذه التَّقدمة والتوطئة التي ربما جاوزت شيئا من الوقت ولكننا إن شاء الله تعالى نأخذ الكلام عليها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

ويكون بهذا قد اِنتهى التَّقديم بهذه المنظومة.

٢

ذكر الموت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرًا إلى يوم الدين؛ أمَّـا بعـد:

فهذا هو المجلس الثَّاني من مجالس التَّعليق والشَّرح على نظم العلاَّمة الفقيه المقرئ أبي إسحاق الألبيري – رحمه الله تعالى – في قصيدته أو نظمه المعروف «بالتَّائية»، وهذا النظم نظمٌ رائق معروف مشهور بين أهل العلم، مروي عن النَّاظم – رحمه الله تعالى –.

وقد قدَّمنا في الدَّرس الماضي بمقدمة فيها الكلام على النَّاظم، وفيها أيضًا طرف من الكلام على نظمه.

قال – رحمه الله تعالى – في هذا النَّظم وفي مطلعه وابتدائه:

تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيّامُ فَتّا ... وَتَنحِتُ جِسمَكَ الساعاتُ نَحتا

وَتَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ ... أَلا يا صاحِ أَنتَ أُريدُ أَنتا

أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ خِدرٍ ... أَبَتَّ طَلاقَها الأَكياسُ بَتّا

تَنامُ الدَهرَ وَيحَكَ في غَطيطٍ ... بِها حَتّى إِذا مِتَّ اِنتَبَهتا

فَكَم ذا أَنتَ مَخدوعٌ وَحَتّى ... مَتى لا تَرعَوي عَنها وَحَتّى

بدأ النَّاظم هذا النَّظم بالتَّذكير بأعظم مُصيبة تنزل على العبد وهو الموت، لأنَّ العبد إذا ذكر الموت صَلُح ظاهره وباطنه، وإذا نسي الموت فسد من ظاهره وباطنه بقدر ما يترتَّب على ذلك من نتائج هذا النسيان، فذِكر الموت موعظة عظيمة ذكَّرنا الله تبارك وتعالى بها في كتابه وذكرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم في سنَّته، بل إنَّ النَّبي صلَّى الله أمر بالإكثار من ذكر الموت كما في الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلم قال:(أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ)[١]، والله جلَّ وعلا يقول:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[٢]، ويقول جلَّ وعلا في كتابه الكريم:

١– في سنن الترمذي.
٢– آل عمران:١٨٥

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾[1]، إلى غير ذلك من النُّصوص الدَّالة على التَّذكير بالموت والخُروج من الدنيا.

وكما ذكرتُ لك فإنَّ ذكر الموت من أعظم الأسباب التي تقود العبد إلى الصَّلاح، ونسيان الموت من أعظم الأسباب التي تقود العبد إلى الفساد، وهذا أمر معلوم، فأراد الناظم أن يبدأ نظمه بهذه الموعظة وهذا التَّذكير لأجل بيان أن العبد لا صلاح له إلا بذكر الموت، وما سيأتي من المواعظ والنصائح والتوجيهات التي ذكرها إنما هي راجعة إلى التَّذكير بالموت والتَّزهيد في الدُّنيا مع الحرص على طلب العلم ونفع النَّفس ونفع الناس.

يقول – رحمه الله تعالى–: [تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيَّامُ فَتّا] الفتُّ في أصل اللغة الكسر، ومنه يقال لكَسر الخبز أو لكِسَر الخبز: «الفتيت»، فالفتّ معناه كسر الشيء، ويقول لك هنا بأنَّ الأيام تفعل فيك، تفعل في قلبك وفي فؤادك الكسر، فكلُّ يوم يمرُّ من حياتك يكسر شيئًا من القلب، وهذه الأشياء إذا كُسرت فإنَّ كسرها لا يُشعب؛ شبَّه أو نبَّه هنا – رحمنا الله وإياه – إلى أنَّ عمل الأيام في الإنسان كعمل الإنسان في تفتيت الشَّيء، وكما قال ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ * فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[2]، فاللَّيل يمحو النَّهار والنَّهار يمحو اللَّيل، والشَّيء الذي يُمحى من عمر الإنسان لا يرجع أبدًا؛ وكما قال بعض السَّلف: (**إنَّ الليالي والأيَّام يعملان فيك يا ابن آدم فاعمل فيهما**).

[تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيَّامُ فَتّا] ولهذا جاء في الصَّحيحين في حديث ابن عمر عن النبي صلَّى الله عليه وسلم لما أخذ بمنكبه وقال: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)[3] وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (**إِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وإِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ، وَمِنْ غِنَاكَ لِفَقْرِكَ**)، وهكذا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديث المعروف يقول: (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ...)[4] إلى آخر الحديث، فالنَّاظم – رحمه الله – لعلمه ومعرفته لأمر الدنيا وأمور الآخرة يُنبِّه على هذا الأمر ويبدأ به؛ وقوله: [فُؤَادَكَ] من أهل العلم واللغة من فرَّق بين القلب والفؤاد ومنهم من لم يفرِّق بينهما، والخطب في هذا كما يقال ميسور في مثل هذا النظم.

١- الرحمن:٢٧
٢- الإسراء: ١٢
٣- صحيح البخاري.
٤- يشير الشيخ حفظه الله إلى حديث (**اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ : شَبابَكَ قبلَ هِرَمِكَ ، وصِحَّتَكَ قبلَ سَقَمِكَ ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِكَ ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ ، وحَيَاتَكَ قبلَ مَوْتِكَ**) وهو حديث صحّحه الألباني رحمه الله في (صحيح الترغيب).

[تَفُتُّ فُؤادَكَ الأَيَّامُ] أي أنَّ الأيام بتداولها ومرورها وذهابها تعمل في فؤادك الفتّ والإزالة، وهذا أمر كما هو معلوم ومُشاهد إلا أنَّ الناس – ونسأل الله أن يُعافينا – في غفلة عن هذا كلِّه، والعاقل من يُنزل نفسه حيث أنزلها الله جلَّ وعلا.

وهكذا الناظم – رحمه الله – يقول بعد ذلك: [وَتَنحِتُ جِسمَكَ السَّاعاتُ نَحْتا] أصل النَّحت في لغة العرب أنَّه نوعٌ من الإزالة أي إزالة الحديد للخشب، فيُسمَّى عمل النَّجار نحتًا لأنه يُنقص من ذلك الخشب، ومن تأمَّل هذا الذي ذكره الناظم أيضًا في هذا المقام علم أنَّ النَّحت الذي تقوم به الأيَّام في هذا الإنسان في عمره وفي لياليه وفي دهره أنَّها تُزيلها كما أنَّ الحديد يُزيل أشياء من الخشب؛ النَّاظم – رحمه الله – أقول وأكرر لعلمه بهذا الأمر يذكره في أوَّل هذا النَّظم، لأن العبد إذا تذكَّر الموت والآخرة سهل عليه ما بعدهما، ولهذا أنظروا إلى قول الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[1].

كان الحسن – رحمه الله – يقول: (**يا ابن آدم نهارك ضيفك فأحسن إليه**[2])، وهذا الأمر معلوم في قرارة نفوس العباد، وأنَّهم راحلون عن الدُّنيا، لكنَّ العاقل من علم أن كلَّ راحل لابدَّ له من زادٍ في رحلته، فالنَّاظم ذكَّرنا بهذه الموعظة التي لابد وأن نأخذ بزمامها وأن نجعلها نُصب أعيننا كما يُقال.

والعبد الذي يعمل بطاعة الله تبارك وتعالى فإنه لا يَلتفت إلى المصاعب ولا إلى شيء يكدِّرها، يقول الحسن – رحمه الله -: (**يا ابن آدم أنت أيام كلما ذهب يوم منها ذهب بعضك، ويُوشك إذا ذهب بعضك أن يذهب كلُّك وأنت لا تعلم، فاعمل، فاليوم عملٌ ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل**).

ثُمَّ قال الناظم – رحمنا الله وإيَّاه -:

وَتَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ ... أَلا يا صاحِ أَنتَ أُريدُ أَنتا

أكد الذِّكرى بالموت بهذا البيت، [وتَدْعُوك]: تناديك، كلُّ يوم يمر من أيامك يناديك فيه الموت إلى قبرك؛ [وَتَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ] لا كذب فيه، ودعاء حق لا باطل فيه، بل كلُّ إنسان سيرِدُ

١ – الجاثية: ٣٢
٢ – أي بالطاعات

على هذا المقام كما قال جلَّ وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾[1]، وكما قال جلَّ وعلا: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[2]، كل العباد إلى هذا الطريق سائرون، وإلى هذا المصير صائرون، لا يخرج عن هذا أحدٌ من الخلق أبدًا، ولكنَّ العاقل من عمل بما صوَّره له النَّاظم وهو أنَّ المنون لا تدعو غيره وإنَّما تدعوه هو، لأننا نُدخل أنفسنا في غفلةٍ بسبب أنَّنا نرى أنَّ الموت لا ينادينا نحن، كما سيُذكِّر بذلك الناظم فيما يستقبل من أبياته فلا نتقدَّم عليه.

هنا يقول: [وَتَدْعُوكَ الْمُنُون] والمنون هي الموت، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾[3]، يعني أرادوا الموت، فالمنون من المنِيَّة وهي أخذُ النَّفس وحصول الموت.

[تَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ] ماذا تقول؟ [أَلَا] هذا حرف استفتاح يُفيد الاهتمام والاعتناء بما يأتي قبله، وقوله: [يَا صَاحِ] هذا ترخيم للصَّاحب، [أَلا يَا صَاحِ أَنتَ أُريدُ أَنتا] أي لا أطلب غيرك، المنون هكذا قائلة، أمَّا العبد فلا يقول هذا لنفسه، فإنَّه يُغسِّل كأنه لا يُغَسَّل، ويُصلِّي على النَّاس وكأنه لا يُصلَّى عليه، ويُشيِّع وكأنه لا يُشيَّع، ويُنزل النَّاس في قبورهم وكأنه لا يُنزل، ويهيل عليهم التراب وكأنه لا يُهال عليه، إلا ما رحم الله تبارك وتعالى، فهو يذكِّرك ويقول: [أَنتَ أُريدُ أَنتا] أي أنَّ الموت يناديك بصدق وبحق [يَا صَاحِ] يا صاحبي من المصاحبة، وكأنَّه نزَّل الموت من الإنسان منزلة الصَّاحب الَّذي لا يفارقه، [أَلا يَا صَاحِ أَنتَ أُريدُ أَنتا].

ثم ينقلنا النَّاظم إلى نفس المقام، إلى ما يقطعنا عن الآخر وما يُنسينا ذكر الموت، فيقول:

أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ خِدرٍ ... أَبَتَّ طَلاقَها الأَكياسُ بَتّا

يقولُ له ما أراك وهذا حالك، وهذا منزلك، وهذه طريقتك في الحياة، إلا أنَّك تحبُّ عرسًا، وليست العِرس هذه هي العروس التي هي الزوجة وإنَّما هي الدنيا، لأنه يريد أن يذُمَّ كلَّ ما في هذه الدُّنيا ممَّا يقطع عن الآخرة، لَم يُرد أن يُزهِّد فقط في المرأة؛ [أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ خِدرٍ] وهذه أراد بها الدُّنيا:

لَعَمْرُكَ ما الدُّنيا بِدار إِقامَة ... وَلَكِنَّها دار اِنتِقالٍ لِمَن عَقل

١- الجمعة: ٨
٢- النساء: ٧٨
٣- الطور: ٣٠

هذه الدُّنيا كنَّاها النَّاظم في بيت سنستقبله بأُمِّ دَفر، كما هو معلوم أنَّ هذا من أسماء أو كُنى هذه الدُّنيا، فهو يقول [أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ خِدرٍ] الدُّنيا دار ممرٍّ لا دار مقر، والنَّاس فيها رجلان: **(رجل باع نفسه فأوبقَها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها)** كما قال علي رضي الله عنه وأرضاه؛ وقد جاء في صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنَّ النَّبي عليه الصلاة والسلام قال: (كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)، وهذا أمرٌ ظاهرٌ؛ ولهذا صحَّ عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: **(يا دنيا غرِّي غيرِي فقد طلَّقتك ثلاثا)**، ولهذا الناظم يقول: [أَبَتَّ طَلاقَهَا الأَكياسُ] والأكياس جمع كيِّس، والكيِّس هو العاقل، وكما صحَّ عن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: **(الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأَماني)**، والنَّاظم – رحمه الله – أخذ هذه المعاني كلَّها ونظمها[1] في هذه الأبيات.

[أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ خِدرٍ] في خِباء مع ما هي فيه من المكر، مع ما هي فيه من الخيانة، مع ما هي فيه من الأماني الباطلة؛ كلُّ هذا حال الدُّنيا ومع هذا فإنها تتزيَّن للإنسان حتَّى تأكُل شبابه وحتَّى تأكل صحَّته وحتَّى تأكل أحسن ما فيه، ثم تُريه نفسها على حقيقتها وأنها تلك العجوز الشمطاء التي لا يلتفتُ إليها أحد.

أَراكَ تُحِـبُّ عِـرساً ذاتَ خِـدرٍ ... أَبَــتَّ طَـلاقَـهـا الأَكـيـاسُ بَـتّا

كيف تُحبُّ هذه العِرْس ذات الخدر وقد أبتَّ طلاقها العقلاء المتنزِّهون عنها العالمون بحقيقتها؟

[بَتّاً] تأكيد لهذا الطَّلاق الذي كانوا عليه؛ [أَبَتَّ طَلاقَها الأَكياسُ بَتّا] ما دليله وما برهانه على أنَّ هذا العبد أراد الدُّنيا، أراد عرسًا ذات خدر؟ دليله ما سيذكره، وهو قوله: [تَنامُ الدَهرَ وَيحَكَ في غَطيطٍ].

[تَنامُ الدَهرَ وَيحَكَ] هذه كلمة «ويح» تُستعمل لشيء من التَّهديد مع التَّخويف ففيها نوع إشفاق، وأمَّا «ويل» فإنَّها كلمة تهديد لا إشفاق فيه؛ هكذا ويح يقولون وويل وويس وويب، كلُّها معانيها متقاربة، فهو يقول له ويحك أمسك عن هذا، تنام الدَّهر كلَّه لا في عمل الدُّنيا ولا في عمل الآخرة قد أضعت دهرك نومًا، والنَّائم ميِّت لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: (النَّوْمُ أَخُو المَوْتِ، وَلَا يَنَامُ أَهْلُ الجَنَّةِ)[2] فكم ينام الإنسان عن [...][3]

١– نظمها: لم يستعملها الشَّارح – حفظه الله –؛ وإنَّما كتبتُها لعدم وُضوح الكلمة التي استعملها.
٢– قال فيه الألباني في «السلسلة الصحيحة»: صحيح بمجموع طرقه.
٣– انقطاع في الصَّوت: من الدَّقيقة ٢١:٤٥ إلى الدَّقيقة ٢٤:٥٧ تقريبًا.

[مَتى لا تَرعَوي عَنها وَحَتَّى] لا ترع[1] ولا ترجع ولا تقيل عنها وحتى.

بهذا القدر نكتفي من التَّعليق على هذا النَّظم؛ ونقف على ندائه لأبي بكر وشروعه في العلم والحض والحثِّ عليه؛ ونسأل الله جلَّ وعلا أن يوفِّقنا وإيَّاكم لما يحبه ويرضاه.

١ – كذا تُسمع ولعلها «ترعوِ» !

الإمامة والهداية وذهاب الغشاوة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعــد:

فهذا مجلس من مجالس التعليق والشَّرح على منظومة العلَّامة المقرئ الفقيه الشهير أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الأَلبيري – رحمه الله تعالى –، والذي ينعقد على غرفة إمام دار الهجرة العلمية، نسأل الله أن يوفقنا وإيَّاكم لما يحبه ويرضاه.

وهو المجلس الثَّالث من هذه المجالس؛ وقد تقدم الكلام على ترجمة المصنف – رحمه الله تعالى – والكلام على نظمه، والكلام على مقدمته التي بدأ بها هذا النظم وأنَّه – رحمه الله تعالى – من معرفته وزهده بدأ بالكلام على التَّذكير بالموت وصفاته وما يتعلق بالانتقال من الدُّنيا إلى الآخرة لتتهيَّأ النَّفس لما يأتي من النصائح والمواعظ والتذكير.

ثم إنَّه – رحمه الله تعالى – بدأ بالنِّداء لمن أراد نصحه وتوجيهه؛ والخلاف الحاصل بين القائمين على طبع هذا النظم من أنَّ طائفة منهم يقولون بأن أبا بكر الذي ناداه الناظم – رحمه الله تعالى – أن هذا المنادى هو ابن للناظم – رحمه الله –، ومنهم من قال بأنه مزامل له في الطلب ثم جرى عليه ما جرى من التَّغير فأخذ يعيب ويتكلم في الألبيري، فردَّ عليه بهذه النصائح وبهذه المواعظ؛ والنَّاظر المتأمِّل في هذا النَّظم يرى أن هذين القولين بعيدان عن الصَّواب، وأنَّ القول بأنَّ هذا المعني ليس شخصًا أو ذات معينًا، وحجة هذا أنَّه أحيانًا يخاطب شخصًا كبيرًا قد تمادى في الغي والباطل:

وَيَقْبُحُ بِالْفَتَى فِعْلُ التَّصَابِي ... وَأَقْبَحُ مِنْهُ شَيْخٌ قَدْ تَفَتَّى

وما أشبه هذا من الأبيات التي تتضمَّنها هذه المنظومة؛ وأحيانا يقول مخاطبا أو ناقلًا عنه أنه يقول:[وَفِي صِغَرِي تُخَوِّفُنِي الْمَنَايَا] الشَّاهد أنَّ هذا قد يكون من باب التَّذكير والنُّصح لهذا المنادى وإن لم يكن شخصا معيَّنًا.

يقول الناظم – رحمه الله تعالى -:

أبـا بـكـرٍ دَعَـوْتُـكَ لـو أجَـبـتـا ... إلى مـا فـيـه حَـظُّـكَ إن عَـقَـلْـتـا

إلى عـلـمٍ تـكـونُ بـه إمامـاً ... مُـطـاعـاً إن نَهَـيـتَ وإنْ أَمَـرْتَـا

ويَجـلُـو مـا بـعَـيْـنِـك مِـنْ غِـشَـاهـا ... ويَهْـدِيـكَ الـطَّـريـقَ إذا ضَـلَـلْـتَـا

وتَحـمـلُ مِـنـهُ في نـادِيـكَ تـاجـاً ... ويـكْـسُـوكَ الجـمـالَ إذا عَـرِيـتَـا

هذه الأبيات بدأها النَّاظم – رحمه الله تعالى – بالنِّداء لهذا الذي ذُكر من قبل الخلاف فيه، وقوله [أبَا بَكْر] هذا منصوب على حذف حرف النداء النائب عن الفعل، أدعو أبا بكر أو ما أشبه ذلك، [أبا بكرٍ] هذا من باب الكُنى [دَعَوْتُكَ لو أَجَبتا] ... لو تفيد[1] امتناع الوجود، وهو يناديه ويقول له لو أجبتا هذا النِّداء فقد وقعت على المحل المطلوب، [لو أَجَبتا] إجابة صحيحة، [إِلَى مَا فِيه حَظُّكَ] يعني إلى أوفر الحظ والنصيب، [إِلَى مَا فِيه حَظُّكَ] والحظ هو النَّصيب عند أكثر أهل اللغة، ومنهم من فرَّق بين الحظ وبين النصيب، وقد قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾[2]، والمراد هنا النصيب؛ فهو يقول بأنَّ إجابتك لي سبيل لهذا الحظ وهذا النصيب وأنَّ تفويتك لهذه الإجابة يُفوِّت عليك الحظ والنصيب الذي قُسم لك، [إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ] متى؟ [لَوْ عَقَلْتَا] وقوله [لَوْ عَقَلْتَا] هنا أراد لو كان لك عقل فأجبت فإنَّك قد أدركت حظك، وهذا العقل لأنه يعقِلك عن مواطن الرِّيب وما يُسفَّه عليه الإنسان.

ما هو هذا الذي دعاه إليه؟ فسَّره في البيت الثاني بقوله: [إلى علمٍ تكونُ به إمامًا]. [إلى علمٍ] اِستعمل النَّاظم – رحمه الله تعالى – التَّنكير إلَّا أنَّ المراد به خصوص العلم الشرعي، ولم يرد النَّاظم – رحمه الله – أنَّ كلَّ علم يوصل إلى هذا الحظ، فلا يُفهم من هذا التنكير أنَّ هذه الفضائل التي سيذكرها ترجع إلى كل علم، بل المقصود بالفضائل الشَّرعية حيث أطلقت وجاءت فإنَّما المقصود بها العلم الشرعي.

[إِلَى عِلْمٍ] أين يوصل هذا العلم؟ إلى الإمامة، ولهذا قال: [إلى علم تكونُ به إماماً] أي أنَّ هذا العلم يوصلك إلى الإمامة في الدِّين والتي هي من أعظم المطالب [...][3]، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[4] وأصلُ الإمام هو المتقدِّم ومنه سُمِّي الإمام في الجيش إمامًا،

١–عبارة «لو تفيد» من إضافتي، أما في التسجيل فهي غير واضحة بسبب التقطّعات..
٢– النساء : ١١
٣– انقطاع الصوت لبضع ثوان
٤– الفرقان: ٧٤

والإمام في الصلاة إمامًا؛ وهو يقول بأن هذا العلم يوصلك للتقدم على غيرك، [إلى علمٍ تكونُ به إماماً] وهذه الإمامة المقصود بها الإمامة في الدِّين، لكن لا يكون المقصد من العلم طلب الإمامة وهذا في جميع ما يَحصُل من الآثار والأسباب بالنسبة لطالب العلم مما فيه نوع حظ من الدنيا ولكن يكون قصده العلم ثم بعد ذلك تأتي هذه الإمامة لكن لا تكون مقصودته، ولهذا صح عن الإمام مالك أنه قال: (**طلبت العلم لنفسي وكذلك كان الناس**)، هذا الأثر العظيم يبيِّن فيه الإمام مالك المنهج الذي كان عليه الناس في طلب العلم، ولهذا قال: (**وكذلك كان الناس**)، ويوضح هذا أن الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – قال: (**ليس شيء أفضل من العلم لمن صلحت نيته، قالوا: وما النِّية يا أبا عبدالله؟ قال: أن ينوي رفع الجهل عن نفسه**).

هو يُبين هنا أن العلم الذي أريد به وجه الله هو الذي يوصل إلى الإمامة في الدين، والإمامة في الدين مطلبٌ شرعي عظيم، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ أيضًا عن إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام لما قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[١] ولما قال له: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾[٢] علَّق ابن القيم بأن صاحب الهوى لا يكون إمامًا لأنَّ الهوى يقود إلى الظلم، ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾، فالإمامة في الدين فسَّرها الناظم بقوله: [مُطاعاً إن نَهيتَ وإنْ أَمَرْتَا] فيكون مطاعًا إذا أمر وإذا نهى لأنَّ هذه هي حقيقة العلم التي تُوصل الأوامر والنواهي والإمامة لا تكون إلا بالعلم، ولهذا تأمَّلوا في قول الله عز وجلَّ مخبرًا عن نبي من أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى، قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ – هذا الجواب وهذا الشَّاهد -: ﴿ قال إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[٣] فذكر العلم لأنه هو المقدَّم في هذه الإمامة، إمامة الدين ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾. ولما

١- البقرة: ١٢٦
٢- البقرة: ١٢٤
٣- البقرة: ٢٤٧/٢٤٦

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[١] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ قالها في سورة الأنعام وفي سورة يوسف، قال:﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم:(**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ بالعلم**)، ولهذا خرَّج مُسلم في صحيحه أنَّ عمر رضي الله عنه وأرضاه لقي نافعا بن عبد الحارث بعسفان، وكان نافع هذا [يستعملهُ][٢] على القرى - يعني على مكَّة وما حولها -، فقال له عمر رضي الله عنه: (**من استخلفت على أهل القرى؟ قال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من الموالي، قال: أستخلفت على أهل القرى مولى من الموالي؟ قال: يا أمير المؤمنين إنَّه قارئ للقرآن عالم بالفرائض، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:** (إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)[٣] هذه هي الإمامة، ولهذا يقول الحافظ ابن القيم - رحمه الله تعالى - في مقدمة كتابه العظيم «إعلام الموقعين» وهو يسوق فضائل أهل العلم وما لهم من المزايا والفضائل قال: (**وطاعتهم أفرض من طاعات الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى:**﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٤]) فمن أسباب عدم اتباع الشيطان وتسلط الشيطان على الناس وجود أهل العلم، وهم ولاة الأمر على الحقيقة، ولهذا قال الحافظ أبو عبد الله ابن بطة - رحمه الله -: (**وطاعتهم واجبة، ومعصيتهم محرمة**)[٥]، وبهذا الأصل العظيم عصم الله الأمة من الفتن في أول صدرها واستمرَّ هذا حتى قلَّ العلم وقلَّ الرُّجوع إلى أهله [بسبب][٦] الفتن، ولهذا النبي عليه الصلاة والسلام ربط وجود الفتن بذهاب هؤلاء العلماء كما في حديث عبد الله بن عمر بن العاص في [صحيح البخاري] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللهَّ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) هذا من أشد آثار ذهاب أهل العلم.

لهذا فسر طوائف من العلماء ومن المفسرين وغيرهم قول الله عزَّ وجل:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي

١- المجادلة: ١١
٢- كلمة غير واضحة، وقد تمّ تقديرها من خلال تتبّع الأثر المذكور بصحيح الإمام مسلم رحمه الله
٣- في صحيح مسلم
٤- النساء: ٨٣
٥- في «الإبانة»
٦- بسبب: أضفتها حتّى تتّضح جُملة الشّيخ، رغم عدم وضوحها في الدّرس الصّوتي بسبب بعض التّقطّعات.

الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾[1] قالوا: (**ننقصها بذهاب العلماء**)، وهكذا العلماء إذا ذهبوا ذهبت الإمامة في الدين.

والآثار في هذا كثيرة جدا، والمقصود هو توضيح ما أراده الناظم – رحمه الله تعالى – لأن من الأسباب الدافعة إلى الحرص على الشيء المعرفة بفضائله، من الأسباب التي تحث المسلم وتحضه على الشَّيء وعلى الحرص عليه أن يعلم فضائله، فإذا علم الفضائل كان أحرص على هذا الذي له هذه الفضائل.

يقول: [إلى علمٍ تكونُ به إمامًا] ما حقيقة هذه الإمامة ؟ [الصَّلاح][2].

[مُطاعاً إن نَهيتَ وإنْ أَمَرْتَا] هذا من آثار العلم، وقد سمعتم هذه النصوص وهذه الآثار، والآثار كثيرة جدا [...][3]

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التّمْثَالِ أَكْفَاءُ ... أَبُوهُمُ آدَم وَالْأُمُّ حَوَّاءُ
فإنْ يَكُنْ لَهُمُ مِنْ أَصْلِهِمْ نسَبٌ ... يُفَاخِرُونَ بِهِ فَالطِّينُ وَالْمَاءُ
لا فَضل إلا لِأَهْلِ العِلمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الهُدى لِمَنِ اِستَهدى أَدِلّاءُ

من روائع ما قاله علي رضي الله عنه أنَّه قال: (**لو لم يكن للعلم شرف إلا أن يدعيه من لا يحسنه لكان كافيا**)، ونحن لا نريد الآن لو تكلمنا عن فضائل العلم وفضائل العلماء، لكنْ سنمشي مع النَّاظم – رحمه الله – ليكون هذا هو المقصود من إيضاح كلامه؛ يقول: [مُطاعاً إن نَهيتَ وإنْ أَمَرْتَا] ثمَّ ذكر أثرًا عظيما من آثار العلم وهو ما يحدثه في نفس المتعلِّم [...][4]، وهو الغشاء والغطاء الذي يكون على القلب قبل العين، فقال:

ويَجلُو ما بعَيْنِك مِنْ غِشَاها ... ويَهْديك الطَّريقَ إذا ضَلَلْتَا

من آثار العلم العظيمة أنه يجلو الغشاء الواقع على العين، وهذا الغشاء الواقع على العين الذي غطى البصر أين مصدره ؟ مصدره الغشاء الذي يكون على القلب بسبب الجهل لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ﴾[5] فإذا ذهبت بصيرة

١- الرعد: ٤١
٢- الكلمة غير واضحة في التسجيل الصوتي
٣- انقطاع لبضع ثوان
٤- انقطاع لبضع ثوان أيضا
٥- ص: ٢٩

القلب ذهب بصر العين، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[1] والله عزَّ وجلَّ أخبر بما نتج من عماهم [...][2] :﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾[3] فهم لا يبصرون شيئًا وإن كان الحق أمامهم؛ فالعلم هو النُّور الذين يضيء لك الطريق.

ما الذين يُذهب الغشاء الذي على القلب ؟ وما الذي يذهب الغشاء الذي على العين ؟ قال: [ويَجلُو ما بعَيْنِك مِنْ غِشَاها] هذا الغشاء هو الجهل، ما الذي يذهبه ؟ العلم، كما قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾[4]؛ العلم فرقان: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[5].

[يَجلُو ما بعَيْنِك مِنْ غِشَاها] فإذا انجلى ما على العين من الغشاء وذهب رأيت الطريق، لهذا من براعة قول الناظم في هذا البيت: [ويَهْديكَ الطَّريقَ إذا ضَلَلْتَا] فلابد أولا من ذهاب الغشاء الواقع على العين والغشاء الواقع على القلب فإذا ذهب الغشاء الواقع على الحس والمعنى بان الطريق وظهر، فإذا بان الطريق وظهر جاء الامتحان بالسُّلوك أو بالانحراف عن الجادة، فالنَّاظم يقول:[ويَهْديكَ] يكون لك هداية، [الطَّريقَ إذا ضَلَلْتَا] فإذا حصل نوع من الضلال العلم يرُدُّك، والعالم لا يمكن أن يحيط بكل شيء علمًا، ولكنَّ علمه يحكمه ويُرجعه إلى مقام الجادة.

هذه ثلاثة آثار للعلم ذكرها في بيتين «الإمامة» و«ذهاب غشاء العين» و«الهداية إلى الطريق الصحيح المستقيم» أثر من آثار العلم بل أعظم آثاره، وما فائدة العلم [إذا لم يكُن قائدًا للخير ؟][6]

وسيبيِّن الناظم إذا لم يكن قائدا إلى الخير، ولهذا يقول – رحمه الله تعالى – فيما سيأتي معنا من أبيات:

إذا ما لم يُفِدْكَ العِلْمُ خيراً ... فخيرٌ منهُ أن لو قد جَهِلتا

١- الأعراف: ١٩٨
٢- انقطاع لبضع ثوان أيضا
٣- فصلت: ٥
٤- الأنعام: ١٢٢
٥- الأنفال: ٢٩
٦- «إذا لم يكن قائدًا للخير»: من إضافتي حتَّى يكتمل بها كلامُ الشَّيخ – حفظه الله –؛ أمَّا في التَّسجيل فهي مبتورة بسبب بعض التَّقطُّعات.

وإنْ ألـقَـاكَ فَـهْـمُـكَ في مهـــاوٍ ... فـليـتـكَ ثُـمَّ ليـتـكَ مـا فَهِمتا

فالعلم لابُدَّ وأن يهدي إلى الطريق [ويَهْديكَ الطَّريقَ إذا ضَلَلْتَا]، ثم ذكر أثرًا عظيمًا يرجع إلى الأثر الأول فقال: [وتَحملُ مِنهُ في نادِيكَ تاجًا] النَّادي المراد به المجتمع الذي يجتمع فيه النَّاس؛ فحيث ما اِجتمع النَّاس ورأوك كان هذا العلم بمثابة التَّاج الذي يميِّز الملك عن غيره من النَّاس، فيقول بأنَّك إذا مررت: [تَحملُ مِنهُ في نادِيكَ تاجًا] وهذه هي حقيقة الإمامة في الدين، والتَّقدم في الدِّين، والتَّقدم في العلم، [تَحملُ مِنهُ في نادِيكَ] في مجتمعك، [تاجًا] بسبب هذا العلم.

[وتَحملُ مِنهُ في نادِيكَ تاجًا] ومع هذا التَّاج: [ويكْسُوكَ الجمالَ إذا عَرِيتَا] فإذا حصل الفقر والفاقة وقلَّة ذات اليد ومُزِّقت الثِّياب ولم تجد غيارًا كان هذا العلم هو كساؤك وهو رداؤك.

[وتَحملُ مِنهُ في نادِيكَ تاجاً ... ويكْسُوكَ الجمالَ] يُجمِّلك، يُعطيك جمالًا ورونقًا، وهذه كانت حالة أهل العلم وحملة العلم.

وتَحـمـلُ مِـنـهُ في نـادِيـكَ تـاجـاً ... ويـكْـسُـوكَ الجـمالَ إذا عَـرِيـتَـا

حيثما كنت فإنَّ الجمال مصاحبٌ لك هو لباسك.

بهذا القدر نكتفي من التعليق على هذه المنظومة؛ ومعلوم أنَّ المنظومات والمنثورات لا تستوي مراتبها في الفهم وما تحمله من المعاني، فبعض الأبيات قد تستغرق منا مجلسا واحدًا أو أقلَّ من هذا أو أكثر، وبعضها معانيها متقاربة؛ ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل فيما سمعناه فائدة للجميع فهو ولي ذلك والقادر عليه.

٤

سيف بتّار ورفيق في الأسفار
يزيد بالنفقة وينقص بالإقتار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعــد:

فهذا هو المجلس الرّابع من مجالس التَّعليق والشَّرح على نظم الألبيري – رحمه الله تعالى – والذي يُعرف «بالتائية»، وقد سبق الكلام على طرف من هذا النظم؛ وهذا الدَّرس ينعقد على غرفة إمام دار الهجرة العلمية، وفقنا الله والقائمين عليها لما يحبه ويرضاه.

قد تقدَّم معنا الكلام على طرف من نظم الألبيري – رحمه الله – عن العلم وفضله ومكانة أهله وحملته، ووصل بنا المقام إلى قوله بعد دعائه لمن أراد تكليمه:

أبا بكرٍ دَعَوْتُكَ لو أَجَبْتا ... إلى ما فيه حَظُّكَ لَوْ عَقَلْتا

إلى علمٍ تكونُ به إماماً ... مُطاعاً إن نَهَيتَ وإنْ أَمَرْتَا

ويَجلُو ما بعَيْنِك مِنْ غِشَاها ... ويَهْديكَ الطَّريقَ إذا ضَلَلْتَا

وتَحملُ مِنهُ في نادِيكَ تاجاً ... ويَكْسُوكَ الجَمالَ إذا عَرِيتَا

يَنالُكَ نَفعُهُ مادُمتَ حَيًّا ... وَيَبقى ذِكْرُهُ[1] لَكَ إن ذَهَبتا

وتوقف بنا الكلام على هذا البيت؛ يقول – رحمه الله تعالى –: [يَنالُكَ نَفعُهُ مادُمتَ حَيّاً] أي أنَّك تُحصِّل نفع هذا العلم مدَّة حياتك، فما بقيت مع العلم، وما بقيت حاملًا للعلم، فإنَّك تنتفع به مادمت حيًّا، فمدة حياتك هي المكان الذي تُحصِّل فيه هذا العلم، وليس هذا فحسب بل إنه أكدَّ إلى أنَّ هذا العلم:[سيَبقى ذُخره – أو ذِكْرُه – لَكَ إن ذَهَبتا] وأراد بالذَّهاب هنا الموت، فيقول إذَا ذهبت وخرجت من هذه الحياة الدُّنيا ولقيك الموت وأدْركك – كما تقَّدم معنا في الدَّرس قبل الماضي أنه ذكَّر بالموت –، يقول لك لِأنَّه حال ذهابك من هذه الحياة الدنيا وخروجك منها فإِنَّ هذا العلم سيبقى ذخرًا وسيبقى ذِكرًا.

١– وفي نُسخة: [سيَبقى ذُخرُه لَكَ إن ذَهَبتا]

أمَّا على نسخة: «الذُّخر» فإن الذُّخر هو الشيء الذي يُذَّخر للإنسان ويبقى له على مدد أو على عمر مديد، فيكون ذخرًا لهذا الإنسان؛ وأمَّا على نسخة: «ذِكْره» أي على قوله: [وَيَبقى ذِكْرُه] فإنَّ المراد بالذِّكر هنا الشَّرف والمكانة والمنزلة، يدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لك وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[1] أراد أنَّه شرف لك ولقومك، فتَشرفون به، ويبقى ذكرًا لكم، لِأنَّ هذا مما يحرص عليه الإنسان؛ والعرب كانوا من أحرص الناس على هذا، وأراد هنا ذكر الخير والإمامة في الدين، والله عزَّ وجلَّ قال عن نبيِّه وخليله إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم قال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾[2] ولسان الصِّدق في الآخرين هو أن يُذكر بالذِّكر الحسن، فالنَّاظم – رحمه الله تعالى – يقرِّب لك هذا المعنى، يقول بأنَّ العلم يُبقي لك الذِّكرى ويبقى أيضا ذخرًا لك؛ ولهذا النبي صلى الله عليه وسلَّم قال كما في صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرَّحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلَّم قال: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَه) والشَّاهد منه قوله: (أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِه)، هذا ممَّا يبقى للإنسان، ويجري عليه عمله، وأنتم ترون في تاريخ هذه الأمة منذ بدئها كيف أنَّ الَّذين بقيَ ذكرهم وبقيت إمامتهم هم الذين حملوا العلم، الصحابة رضي الله عنهم مُقدَّمون في هذا وعلى رأس هذه الأمة، التَّابعون الذين جاءوا من بعدِهم عاصروا ملوكًا وأمراء وأغنياء إلا أنه لم يبق من الذِّكر إلا ذكرُ العلماء وحملة العلم، الإمام أحمد – رحمه الله – كم الذين عاصروه وعاشوا معه في زمانه من حملة الملكِ والسُّلطان أو حملة الجاه والمال ولكن [لم يبق لهم ذكر][3] [...][4]

قال الناظم – رحمه الله –:

هُـوَ الـعَـضْـبُ الْمُـهَـنَّـدُ لَـيـسَ يَـنـبـو ... تُـصِـيـبُ بِــهِ مَـقـاتِـلَ أَرْدَتَـــا

[العَضْبُ] أي قاطعٌ، فهو يقول لك بأنَّ العلم إذا حصَّلته هو «العضب» وأيضا «المهند»، العضب نِسبةً إلى حِدَّة القطع وشدَّته، والمُهنَّد قيل فيه أقوال وأشهرها أنَّه منسُوب إلى الهند، بمعنى أنَّه صنع ببلاد الهند، وهذا مما يُوصف به السيف، فيوصف بالمهند، ويوصف بالعضب، ويوصف بالبتار، ويوصف بالصَّارم، فلقوة سُلطان العلم شبَّه هذا العلم بالسيف فقال: [هُوَ العَضبُ المُهَنَّدُ

١- الزخرف: ٤٤
٢- الشعراء: ٨٤
٣- «لم يبق لهم ذكر»: الجملة غير واضحة في التَّسجيل، كتبتُها فقط كي أتِمَّ بها كلام الشَّيخ.
٤- انقطاع في الصَّوت من الدَّقيقة: ٠٥:٥٦ إلى الدَّقيقة ٠٦:٠٠ تقريبًا.

لَيسَ يَنبو] لاحظ إلى الأوصاف التي وصف بها السَّيف: «العضب» و «المهند» وفي نفس الوقت ليس ينبو، والنبو «نبَا، يَنْبُو، نَبْوًا»، النَّبْو هو الخطأ في الإصابة، يقولون: «نبا السَّيف، ينبو نُبوًا» إذا لم يصب موقعه، فإذا لم يُصب هدفه فإنَّه يقال فيه «نبا السيف»؛ هنا يقول النَّاظم رحمه الله : [هُوَ العَضبُ] لاحظ إلى الأوصاف [العَضبُ] قلنا شدَّة القطع، و[المُهَنَّدُ] أيضا من شدة القطع والحدَّة، ومع هذا: [لَيسَ يَنبو] بمعنى أنَّه بمجرد وقوعه على الهدف لا يُخطئه ولا يَرجعُ على صاحبه [لَيسَ يَنبو].

ثم يقول: [تُصيبُ بِهِ مَقاتِلَ أَردْتَا] والمَقَاتِل هي مواضع القتل في الإنسان، يعني المواضع التي تقتُل الإنسان؛ وقد ذكر الفقهاء – رحمهم الله تعالى – في كتاب الحدود والقصاص هذه المواضع والخلاف فيها، وليس هذا محلُّه، لكنَّ مراد الناظم – رحمه الله – أن يقول بأنَّ حامِل العلم كحامل السَّيف حيثما أراد الإصابة أصاب.

هُوَ العَضبُ المُهَنَّدُ لَيسَ يَنبو ... تُصيبُ بِهِ مَقاتِلَ أَرَدْتَا

لماذا ؟ لأنَّ العلم سُلطان، العلم له سلطان، فإذا جاء العلم ذهب الجهل وذهب الضلال، ولا يَقف للبِدع، ولا يقفُ للجهل، ولا يقف للخُرافات، ولا يقف للانْحرافات إلَّا العلم؛ ولهذا شبَّهه بالسَّيف، فمن كان ذكيًا فَهِمًا لكن لا علم عنده فإنَّما هو بمثابة الشجاع المقدام الذي لا سيف له، فهو يقول لك: «إن كنتَ [يقظا][1] فهماً ذكيًا فعَليك بالعلم»، والعلم هو إصابة المقتل ولهذا لا تندثر شبهات وحُجج أهل الباطل إلَّا بالعلم، ولهذا قال العلماء – رحمهم الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾[2] قالوا: (**المراد بالسُّلطان هنا العلم**)؛ وهكذا العلم مكانته عظيمة جدًّا كما يقول ابن القيم – رحمه الله –:

والجهلُ داء قاتلٌ وشفاؤه ... أمْران في التَّركيب متفقانِ

نصٌّ من القرآن أو من سنَّة ... وطبيبُ ذاك العالِمِ الرَّباني

هذا الجهل داء، ومع أنَّه قاتل إلا أنَّ ذهاب وشفاء هذا الدَّاء هو العلم، وهنا النَّاظم – رحمه الله – وعنده براعة في النَّظم عجيبة – رحمة الله عليه –، يقول لك إذَا تحمَّلت العِلم فقد تحمَّلت

١– الكلمة غير واضحة في التَّسجيل
٢– الرَّحمن: ٣٣

سيفًا لا يذر ولا يُبقي، [تُصيبُ بِهِ مَقاتِلَ من أردتا].

ثُمَّ قـــال:

وَكَـنـزٌ لا تَخـافُ عَـلَـيـهِ لِـصًّـا ... خَـفـيـفُ الحَـمـلِ يـوجَـدُ حَـيـثُ كُنتا

يقول – رحمه الله تعالى – في وصف هذا العلم بأنه كنز، ومع هذا فإنَّه خفيفُ الحمل، وأنتم تعرفون الكنوز في تلك الأزمنة زمن النَّاظم – رحمه الله –، في المائة الرَّابعة؛ في المائة الخَامسة، – توفي في أربعمائة وستين تقريبًا –، كانت الكنوز عندهم من الذَّهب والفضة، ولهذا هنا قال: [خَفيفُ الحَملِ] فالرَّجل الذي يكونُ عنده كنز في ذاك الزمان يحتاج له للصَّناديق، اليوم يضع المليارات في البنوك أو ما أشبه ذلك، هو يقول: [وَكَنزٌ لا تَخافُ عَلَيهِ لِصًّا] أينما اتَّجهت فإنَّ اللُّصوص لن يدخلُوا إلى قلبك، يعني اللُّصوص الذين يسرقون المواد أو الأمور الحسِّية، أمَّا اللصوص الذين يسرقون الأمور المعنوية فما أكثرهم، وقد يصلُون إلى هذا الكنز، وهم جنود الشُّبهات وجنود الشَّهوات، فقد يذهب العلم وقد يذهب سُلطانه بدخُولهم على الإنسان، لكن النَّاظم – رحمه الله تعالى – إنَّما أراد من حافظ على العلم وحافظ على منزلته.

يقول: [وَكَنزٌ لا تَخافُ عَلَيهِ لِصّاً] ما يسرقه أحد، ومع هذا: [خَفيفُ الحَملِ يوجَدُ حَيثُ كُنْتا] هذا متى يُقال ؟ إذا كان الإنسان حافظا للعلم، أمَّا من كان علمه في كِتابه أو في كرَّاسه ودفتره فإنَّ وجوده كعدمه؛ انظروا إلى قول أبي زيد عمر بن أخطب رضي الله عنه وأرضاه لما حدَّث عن النبي صلى الله عليه وسلَّم بذاك الحديث الطَّويل – وهو في صحيح مسلم – قال: (**كان أعلمنا أحفظنا**)، والرَّحبي – رحمه الله – يقول في نظمه: (**فَاحْفظ فكلُّ حافظٍ إمام**)، وكما قال النَّاظم الآخر – فيما ذكره أبو عمر بن عبد البر في «جامع البيان»، قال:

وَاعـلَـم بـأَنَّ الـعـلْـم بِـالـتَّـعـلُّـم ... وَالحِـفـظ والإتـقـانِ والـتَّـفـهُّـم

هذه حقيقة العلم، فالنَّاظم – رحمه الله تعالى – يقول: [خَفيفُ الحَملِ يوجَدُ حَيثُ كُنتا] أمَّا إذا كان عُمدة طالب العلم على الكُتب وعلى القراطيس فإنَّه يخونه العلم أحوج ما يكون إليه، ولهذا يقول الشَّاعر الآخر:

إستودع العِلم قِرطاسًا فضيَّعه ... فبِئْس مُستودَعَ العِلم القَراطِيس

أبو محمد بن حزم، وقبل أبي محمد بن حزم، الشَّافعي – رحمه الله – يقول فيما رُوي عنه من الشعر:

علْمي معِي حيثُما يَمَّمت يصـْحبني ... قلبي وِعــاء لــهُ لَا بطـن صنـدُوق
إنْ كنتُ فِي البيْت كانَ العلم فِيه معي ... أو كنت فِي السُّوق كان العلْم فِي السُّوق

[...][1] وذكروا في ترجمة أبي محمد بن حزم، وأبو محمد بن حزم معروف عداؤه ومعاداته لأئمة المذاهب الأربعة، حتى ذكروا بأنَّه عنْدما كان في بلاد الغرب الإسلامي لم يقم له إلَّا أبو الوليد الباجي عندما رجع من رحلته من جهة الشرق، فالشَّاهد أنه حصل في زمان من أزمنته أنهم جمعوا كتبه وأحرقوها كلَّها، فلمَّا أحرقوها وقف عليها وقال أبياتًا مرتجلا بها:

فَـإِن تَحرِقوا القِرْطاسَ لاَ تَحرقوا الَّـذِي ... تَضمَّنه القِرطاس بَل هُو فِي صدرِي
يسِير مَعي حيثُ اسْتَقَلَّت ركَـــائِبي ... وَيَنزِل إِن أَنْـزِلْ وَيسكن فِي قَـبْرِي
دَعونِي مِن إِحرَاق رقٍّ وكــــاغدٍ ... وَقولوا بِعلمٍ كي يَرى النَّاس مَن يَدري
وَإِلاَّ فَـعـودوا فـي المكـاتِـب بـــدْأَةً ... وكـم دُون مـا تبغُون للهِ مـن سِـترِ
كَــذاكَ الـنَّـصـارى يُحـرِقـون إذا علتْ ... أَكفُّهـم الـقـرآن فـي مــدُن الثَّغْرِ

هذا هو أبو محمد بن حزم - رحمه الله -، ومثل هذا كثير، وهل تعرفون أنَّ أبا زرعة الرازي قال لعبد الله ابن الإمام أحمد: **(أبوك يحفظ ألف ألف حديث - يعني مليون، فقد كانوا يحفظون الأسانيد وآثار الصَّحابة ويُسمُّونها أحاديث - فقال: وما أدراك بهذا ؟، قال: قد ذاكرته فيها)**، وهذا كان دأب السلف - رحمهم الله - الحرص على الحفظ.

وقد ذكروا أيضًا في ترجمة أبي الحامد محمد بن محمد الغزَّالي الفقيه الشافعي المشهور المُتكلِّم المتصوِّف أنه لما رحل إلى طرسوس أو إلى غيرها من بلاد ما وراء النهر في بلاده، وكان يكتب، يكْتُب عن الأشياخ حتى حمَّل [...][2] بعير فخرج مسافرًا، ووجده اللصوص، فسألوه عمَّا يحمل - يعني سألوه أن يعطيهم ما يحمل -، فقال: **(إنما هي كتب وأوراق وعلم كتبته عن الأشياخ، قالوا له: أتحفظه؟ قال: لا؛ فأخذوه)** أخذوه ليداووا قهر نفوسهم لأنهم ظنَّوا أن هذا القادم مُحمَّل بالبضائع، وأخذوه ليقهروه أيضًا لأنك لا تحفظ هذا العلم، فلمَّا رجع في رحلته الثانية كان لا يكتب شيئا إلا حفظه؛ طبعا أنا أذكره هنا ليس ثناء لهؤلاء، لا لأبي محمد بن حزم ولا لمحمد الغزالي، لا.

١- انقطاع في الصَّوت من الدَّقيقة: ١٥:٠٧ إلى ١٥:١٧ تقريبًا.
٢- كلمة غير واضحة

ولو نظرنا إلى علمائنا علماء الحديث كما ذكرتُ لكم أبو زرعة كان يحفظ خمسمائة ألف حديث، وجاء في ترجمة الجمَّاعيلي المقدسي مؤلف كتاب «العمدة الصغرى والكبرى»، أنه كان حافظَ أهل بلاده، فقال رجل يوما لزوجته عند القاضي مختصما: (**أنتِ طالق إن لم يكن الجماعيلي** – هو يريد أن يتخلص منها ظن أن المقدسي لا يحفظ هذا القدر من الأحاديث –، قال: **أنت طالق إن لَم يكن الجماعيلي حافظا لمائة ألف حديث**)، فلما عُرضت المسألة على القاضي تحير فيها قال كيف نفعل في مثل هذا ؟ لا جواب إلا أن يُسأل الجمَّاعيلي، فإن كان حافظا لمائة ألف حديث لم يقع الطلاق وإلا وقع، فلمَّا ذهبوا إلى المقدسي – رحمه الله تعالى –، قال:(**لو قال أكثر من ذلك لصدق..**) ولم يقع الطَّلاق، يعني يقول لهم: أنا أحفظ أكثر من مائة ألف حديث ! [...][1]

فلازال العلماء على هذا – أي على الحفظ – لأنه مهم بالنسبة لطالب العلم، فالألبيري – رحمه الله تعالى – يقول هنا: [وَكَنزٌ لا تَخافُ عَلَيهِ لِصًّا] لا تخاف عليه من اللصوص الذين يتسللون إلى الذَّوات والأماكن، لكن هناك لصوص أخفياء وقد يسرقون العلم، وقد يكونون من حواسّك – أسأل الله أن يعافيني وإياك منهم – فعينك لصّ، ويدك لص، وبطنُك لصٌّ، وفرجك لصٌّ، كلُّ هؤلاء لصوص، وهؤلاء اللُّصوص هم الذين يتمكَّنون من سرقة العلم، أمَّا لصوص الدُّنيا ولصوص الكنوز الذَّهب والفضة فإنهم لا يستطيعونه.

يـقُــول:

وَكَـنـزٌ لا تَخـافُ عَـلَـيـهِ لِـصًّـا ... خَـفـيـف الحَـمـلِ يـوجَـدُ حَـيـثُ كُنتا

يعني حيثما وُجدت فالعلم معك، كما قدَّمتُ لك، لكنَّ هذا العلم هو العلم المحفوظ، العلم الذي في الصدر، العلم الذي تحمَّلته بحفظك، لهذا كان السلف – رحمهم الله – يحضُّون ويحثُّون ويشدِّدون على قضية الحفظ والاعتناء بها.

[لا تَخافُ عَلَيهِ لِصًّا خَفيف الحَملِ] لا يُثقلك، على العكس بل الإنسان كلما حفظ العلم كلَّما كان نشيطًا [خَفيف الحَملِ يوجَدُ حَيثُ كُنتا].

يقول النَّاظم – رحمه الله تعالى – بعدها:

يَـزيـدُ بِـكَـثـرَةِ الإِنـفـاقِ مِـنـهُ ... وَيـنـقُـصُ إِن بِـهِ كَـفًّـا شَـدَدتـا

١ – جُملة غير واضحة؛ الدَّقيقة ١٩:٢٣ تقريبًا.

كلَّما أنفقتَ من هذا العلم بجميع النَّفقات: بتعليمه، بالتَّأليف فيه، بشرحه، بتوضيحه، فإنَّك تزيد في هذا العلم، ومن الإنفاق للعلم العمل به، وهذا سيأتي معنا في الكلام على العمل بالعلم، في كلام الناظم – رحمه الله – لأنه سيقول بعد ذلك:

إذا ما لَمْ يُفِدكَ العِلْمُ خَيرًا ... فَخَيرٌ مِنهُ أَن لَو قَد جَهِلتا

وَإِن أَلقاكَ فَهمُكَ في مَهاوٍ ... فَلَيتَكَ ثُمَّ لَيتَكَ ما فَهِمتا

سَتَجني مِن ثِمارِ العَجزِ جَهلاً ... وَتَصغُرُ في العُيونِ إِذا كَبُرتا

فالنَّاظم – رحمه الله – هنا يقول: [يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنفاقِ مِنهُ] كان بعض العلماء كالإمام أحمد وغيره يقولون: (**إن كنَّا لنستعين على حفظ الحديث بالعمل به**)، وهذا كثير في كلام الأئمة – رحمهم الله – ولهذا جاء عن سعيد بن جبير – رضي الله عنه ورحمه – وهو أحد تلاميذ ابن عباس حبر هذه الأمة، يقول – عليه رحمة الله ومغفرته –: (**لأن أنشُر علمِي للنَّاس خير لي منْ أن أذهب به إلى قبري**)، ولهذا كانوا يحرصون على بذل العلم، ونشر العلم، وتعليم العلم بجميع وسائل النَّشر، وهذا الحال لازال باقيا في هذه الأمة وفي حملة العلم ما بقي العلم.

ولهذا – يعني كما يقولون عودة على بدء أو الشيء بالشيء يذكر – تذكرت نوعًا من الفقه في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لما قال النبي صلى الله عليه وسلَّم: (إنَّ اللهَّ لا يقبِضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزِعُهُ من صُدورِ الرِّجالِ ، ولكن يقبِضُ العِلمَ بقبضِ العلماءِ ، فإذا لم يَبْقَ عالِمٌ اتَّخذَ النَّاسُ رؤُساءَ جُهَّالًا فَسُئلوا فأفتَوا بغيرِ علمٍ فضَلُّوا وأضَلُّوا)[1] الشَّاهد من هذا في الكلام على البيت المتقدِّم أنَّ هذا الحديث قال: [لا يقبِضُ العِلمَ انتزاعًا ينتزِعُهُ من صُدورِ الرِّجالِ] لماذا؟ لأنَّ العلم في الصُّدور، هذا الأصل، الكتب عاملٌ مساعد، الكتب علاقتك بها في بداية الطلب وفي نهايته للمراجعة فيها، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[2].

فهذا العلم يقول فيه النَّاظم – رحمه الله –: [يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنفاقِ مِنْه]، جاء عن جماعة من السَّلف ورُوِي هذا مرفوعًا إلَّا أنَّه لا يصحُّ بحال: (**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**).

يقول لك: [يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنفاقِ مِنْه]، [وَينقُصُ] هذا العلم ويبقى راكدًا أو ينقص فلا يزيد بل

١– صححه الألباني في «صفة الفتوى»
٢– العنكبوت: ٤٩

يذهب [إِن بِهِ كَفّاً شَدَدتا] فإذا أمسكتَ العلم وحجمتَ عنه أهله وطالبيه فإنَّه يذهب [...][1]، [وَيَنْقُص إِن بِهِ كَفّاً شَدَدتا].

أوَّل المنظومة هو رأسها وأساسها وأبياتها أقوى.

النَّاظم - رحمه الله - سيذكر بعد ذلك مقارنة بين المال والعلم، وسنذكرها إن شاء الله، ونذكر بعض الآثار المتعلِّقة بها.

وبهذا التَّقرير وبهذا التعليق ينتهي الكلام على نظم الألبيري - رحمه الله تعالى -.

١ - كلمة غير واضحة.

٥

حلاوة العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعـــد:

فهذا مجلس من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على منظومة العلامة الألبيري الموسومة «بالتائية»، والتي ذَكر فيها العلم وفضله والصَّوارف عنه، وهي كما قدَّمنا منظومةٌ رائقة فائقة على غيرها، وطالبُ العلم مُحتاج إلى التَّأمُّل في دقيق معانيها.

وتحدَّثنا في مجلسين ماضيين[1] عن طرف من هذه المنظومة، وعن بعضِ ما اِحتوته من المعاني، وبلغنا إلى قوله - رحمه الله تعالى -:

فَـلَـو قَـد ذُقــتَ مِـن حَـلــواهُ طَـعـــاً ... لَآثَــرتَ الـتَـعَـلُّـمَ وَاِجـتَـهَـدتـا

وَلَمْ يَـشـغَـلـكَ عَـنــهُ هَــوى مُـطــاعٌ ... وَلا دُنـيـا بِـزُخـرُفِـهـا فُتِنْتا

وَلا أَلهـاكَـــ عَـنـهُ أَنـيــقُ رَوضٍ ... وَلا خِـــدرٌ بِـزيـنـتِـهـا كُلِفتا

هذه الأبيات لايزال النَّاظم فيها يبيِّن أثر العلم وتأثيره على طالبه وحامله والسَّاعي فيه.

ولمَّا ذكر بعض الثِّمار المتعلِّقة بالعلم، تمَّم بأنَّ هذه الثِّمار تتجاوز إلى نفْس المتعلِّم فلا يجد راحة ولا أُنسًا ولا لذَّة ولا نشوة إلَّا بالعلم وفي العلم، وعلى الخصوص في ذلك العلم الذي يقودُ إلَى الله تبارك وتعالى، في العِلم الَّذي يُعرِّف بالله تبارك وتعالى وبأسمائه وصفاته؛ فإنَّ ألَذَّ العلوم وأكملها وأجلَّها وأفضلهَا ما أوصل إلى معرفة الرَّب تبارك وتعالى، والنَّاظم - رحمه الله تعالى - يقرِّر لنا هذا المعنى في غاية التَّقرير، فانظر في قوله - رحمه الله تعالى -:

أبـا بـكـرٍ دَعَــوْتُــكَ لـو أَجـبــتـا ... إلى مـا فـيـه حَـظُّـكَ لـو عَـقَـلْـتـا

إلى عـلـمٍ تـكـونُ بـه إمامــــــاً ... مُـطـاعـاً إن نَهَـيـتَ وإنْ أَمَـرْتَـا

ويَجـلُـو مـا بـعَـيْـنِـك مِــنْ غِـشَـاهـا ... ويَهْـديـك الـطَّـريـق إذا ضَـلَـلْـتَـا

١ - لعلّ الشيخ يقصد (في المجالس الماضية)..

وتَحـمـلُ مِـنـهُ في نـادِيـكَ تـاجًـا ... ويـكْـسُـوكَ الجـمالَ إذا عَـرِيـتَـا

يَـنـالُـكَ نَـفـعُـهُ مـادُمـتَ حَـيًّـا ... وَيَـبـقـى ذِكْـرُهُ لَـكَ إن ذَهَبتا

هُـوَ الـعَـضـبُ الُمـهَـنَّـدُ لَـيـسَ يَنبو ... تُصيبُ بِـهِ مَـقـاتِـلَ مَـن أَرَدْتَا

وَكَـنـزٌ لا تَخافُ عَلَيهِ لِـصًّا ... خَفيفُ الحَملِ يـوجَـدُ حَيثُ كُنتا

يَـزيـدُ بِـكَـثـرَةِ الإنـفـاقِ مِـنـهُ ... ويَـنـقُـصُ إن بِـهِ كَـفًّـا شَـدَدتـا

إلَـى أن قال – رحمهُ الله تعالى –:

[فَلَو قَد ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعماً] يقول بأنَّك لو ذُقت حلاوةً للعلم، لأنَّ الأمور المعنوية لها طعمٌ ولها حلاوة ولها لذَّة، بل حلاوتها تفُوق كلَّ حلاوة، ولذَّتها تفُوق كلَّ لذَّة، وطعمها يفوق كلَّ طعم، ومن ذلكَ الإيمان، فإنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم قال كما في صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطَّلب: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا) وبيَّن هذا الطَّعم كما في [صحيح البخاري] من حديث أنسٍ رضي الله عنه، فقال: (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ)، هذه الحقائق وهذه المعانِي لها طعمٌ ولها حلاوةٌ لا يجدها إلَّا من عاناها، ولهذا لَّما روى الإمام مُسلم – رحمه الله تعالى – أحاديث المواقيت في الصَّلاة من طريق يحيى بن أبي كثير ذكر قوله: (**لا يُنال العلم براحة الجسم**)، فالعلم لذَّتُه أعظمُ اللَّذات، وشهوته أعظم الشَّهوات، وأصحابه هم المسرُورون وهم الفرحون، – وإذا ذكرنا العِلم فإنَّما نذكُر العلم الَّذي يُوصل إلى معرفة الله كما تقدَّم معنا –.

ولهذا يقول النَّضر بن شُمَيل – رحمه الله تعالى –: (**لن تجد لذَّة العلم حتَّى تجوع وتنسَى جوعك**)، هذه المنزلة من يتطلَّبها فضلًا عن أن يدركها، منزلةٌ ليس بعدها في العظمة منزلة، ولهذا النَّاظم يقول: [فَلَو قَد ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعماً] أي من حلوى العلم [لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاجتَهَدتا]، يقول الحافظ ابن القيِّم – عليه رحمه الله –: (**وأمّا عُشَّاق العلم فأعظم شغفًا به وعِشقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر**)، وقال أيضًا: (**ولو صوَّروا العلم صورةً، لكانت أجمل من كلِّ صورة**) أو بهذا المعنى من كلامه – رحمه الله تعالى –؛ فالعلم له لذَّة وله حلاوة إخوتِي في الله.

قيل للشَّافعي – رحمه الله –: (**كيف شهوتك للعلم؟ قال: سامعٌ بالحرف** – أي بالكلمة – **ممَّا لم أسمعه، فتودُّ أعضائي أنَّ لها أسماعًا تنعمُ به كما تنعَّمت الأذن؛ فقيل له: كيف حرصك عليه؟ فقال: حرص الجموع المنُوع في بلُوغ لذَّته للمال؛ فقيل له: فكيف طلبك له؟ فقال: طلب المرأة المضلَّة ولدها ليس لها غيرُه**)، هذه اللَّذة التي كانوا يعايشونها ويتعايشون معها ويستشعرونها ويطلبونها هي حياتهم وروحهم؛ ولهذا نُسب إلى الشَّافعي – ونُسب إلى غيره – أنَّه قال:

سَهري لِتنْقيحِ العُلومِ أَلَذُّ لِي ... مِن وَصْلِ غانِيةٍ وطِيبِ عِناقِ

وصريرُ أقلامي على صفحاتِها ... أحلى مِنَ الدَّوكاءِ والعشَّاقِ

وَأَلَذُّ مِن نَقْرِ الفتاة لِدُفِّها ... نقري لأُلْقي الرَّمل عن أوراقي

وتمايلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... في الدَّرْس أَشْهى مِن مُدامَة سَاقِ

يا من يُحاول بالأَماني رُتبتي ... كَمْ بَيْنَ مُسْتفل وآخر راقي

أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيتهُ ... نَوْماً وَتَبْغي بَعْدَ ذَاكَ لَحاقِي؟

هذه حقيقةٌ يغفلُ عنها كثيرٌ من النَّاس، وهي أنَّ الإنسان إنَّما يتحرَّك إلى الشَّيء بقدر ما يكونُ عنده من الحبِّ له، ولهذا ذكر الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في مواضع عِدَّة من كتابه العظيم الجليل «قاعدة في المحبَّة»، يقول فيه – عليه رحمه الله – بأنَّ أصل كلِّ حركات العالم إنَّما هي المحبَّة، وأنَّ الإنسان إنَّما يتحرَّك في طلب الشَّيء بقدر محبَّته له، بمعنى: أنَّ الإنسان يطلب الشَّيء على القدر الذي يُعايشه أو يَختلجُ في قلبه من حبه؛ وأنتم تعرفون أنَّ الإنسان إذا أحبَّ شيئًا فإنَّه يطلبه علَى قدر محبَّته له؛ فالعلم هو أعظم محبوب، وخصوصًا هذا العلم الَّذي يُعرِّف بالله عزَّ وجلَّ – كما نبَّهنا على ذلك مرارًا –.

وقد كنتُ قلتُ أبياتًا لا أزعم حقيقتها في نفسي، وذلكَ في مجلس ختمِ صحيح الإمام البُخاري برواية أبي ذرٍّ الهروي على شيخنا العلَّامة الجليل والدَّراكة النَّبيل عبد الله بن عبد العزيز العقيل – رحمه الله تعالى –، قلتُ قصيدةً، وفي ضِمنها:

فحرصا يا رعاك الله جهدا ... لإدراك المطالب بارتحال

فما للعلم إن عوضت دنيا ... وما للعلم تبديل لسالِ

فتحصيل العلوم ألذُّ ممَّا ... يُنادمه المغَازل في اللَّيالي
وأحلى من كؤوس الشَّهد صبًّا ... وأندى من مُناولة الزُلالِ
وأطرب للنُّفوس من التَّغني ... وأشهى من مُعافسة العِيالِ
ونشوة فارسٍ يحتز رأسًا ... إذا ما هُزَّ سيفٌ للقتالِ
ولو ملك العراق لكم تأتى ... لزال الملك فاعتبر المُخالِ

حقيقة هذا أنَّ العلم له لذَّة، وبقدر ما يجد طالب العلم من لذَّة العلم بقدر ما يكون عنده منَ الحرص عليه.

ولهذا قال شيخ مشايخنا العلَّامة حافظ حكمي – رحمه الله – في ميميته الرَّائقة:

يا طالِب العلْم لا تبْغي بِه بدلًا ... فقد ظفِرْت وربِّ اللَّوح والقلَم
وعظِّم العِلم واعرِف قدر حُرمته ... في القَول والفِعل والآدَاب والقيَم

فالعلمُ عزٌّ، والعلم لذَّةٌ، والعلم حياةٌ، فإذا طلب طالبُ العلمِ العِلمَ فإنَّه ينبغي له أن يترُك كلَّ شيء وراءه.

كنتُ في مجلسٍ مع شيخنا العلَّامة ابن غديان – عليهِ رحمةُ الله ومغفرته –، وكُنَّا نقرأ عليه، وحضرتُ أنا وأحد الإخوان كل واحدٍ منَّا يحمل كُتبه، وصَاحَبنَا شخصٌ لا يَحمل كتابًا، فقال له الشَّيخ: (**أين كتابك** ؟ قال: أنا حضرتُ مع الإِخوان؛ فقال له الشَّيخ – رحمة الله عليه –: – **وهكذا أهل العلم لا يتركُون أيَّ مقام يُوصلون فيه النُّصح إلَّا وفعلوا** –، قال له: **يا بني اِجعل أعظم مقصدٍ لك في حياتك هو العلم، وما عداه فهو تابعٌ له**)، هذه الكلمة العظيمة منَ الشَّيخ – رحمهُ الله تعالى – ترسُم لِطالب العلم حياةً طويلةً في طلبه لِلعلم.

قال بعض الحكماء: (**من خلا بالعِلم لَم تُوحشه الخَلوة، ومن تسلَّى بالكتب لَم تفُته السَّلوة**)، ولهذا قيل لابن المبارك – رحمه الله –: (من تجالس ؟ فقال: **أصحاب النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، إنِّي أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم**)، وقد قيل للنَّوفلي: (مَا بلغ بِك من شهوتك للعلم؟ قال: **إذا نشطتُ فلذَّتي، وإذا اغتممتُ فسَلوَتي**) فهو متقلِّبٌ بين هذين الأَمرين.

فالشَّاهد من هذَا أنَّني كما ذكرتُ لكم قبلُ بأنَّ بعض أبياتِ هذه المنظومة - وخصوصًا في أوَّلها - فيها من العظمة ما يحتاج إلى كثير من النَّظر والتَّأمُّل والتَّفكُّر فيها.

يقول: [فَلَو قَد ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعماً لَآثَرتَ] لآثرت على كلِّ شيءٍ، وآثرتَ علَى كلِّ محبوبٍ طلَب العلم.

[لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاِجتَهَدتا] واجتهدت فيه؛ وسنذكر الِاجتهاد في طلب العلم وعلو الهمَّة عند قول النَّاظم - رحمه الله -: [فَواظِبهُ وَخُذ بِالجِدِّ فيهِ]، فلا نتقدَّمُه - رحمه الله -.

فَلَو قَد ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعماً ... لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاِجتَهَدتا

لآثرت التَّعلُّم على كلِّ مرغوب ومحبوبٍ واجتهدت.

وَلَم يَشغَلكَ عَنهُ هَوىً مُطاعٌ ... وَلا دُنيا بِزُخرُفِها فُتِنتا

يقولُ: لو قد وصلتَ إلى هذه المرحلة من طلب العلم وتحقَّقت في نفسك وآثرت التَّعلُّم واجتهدت، فإنَّه لن [يَشغَلَكَ عَنهُ هَوى مُطَاعٌ] يعني الهوى الَّذي تُطيعُه، وإنَّما سُميَ الهوى هوى لأنَّ النَّفس تهواه وتُحبُّه وتميل إليه، ولأنَّه يهْوِي بصاحبه عن المقاماتِ العالية، أو يهوي بصاحبه - عياذًا بالله - كما جاء عن طائفةٍ من السَّلف في نار جهنَّم، فيهوي به أولًا في مطامعه ثم يهوي به في نار جهنَّم - عياذًا بالله -.

فهو يقول لك: [لَم يَشغَلَكَ عَنهُ هَوى] يعني لن تشتغل عنه بهوى تُطيعه، فهذه الكلمة عامّة في كلِّ شيء تهواه، فالإِنسانُ يهوَى أشياء، ويختلفُ هوى النَّاس من بلدٍ إلى بلد، ومن زمانٍ إلى زمان، ومن مكانٍ إلى مكان، فمن النَّاس من زُيِّنت له الحياة الدُّنيا إجمالًا، وآخرين زُيِّنت لهم النِّساء، وآخرين زُيِّنت لهم المراكب، وهكذا، فهو يقول لك [وَلَم يَشغَلَكَ عَنهُ هَوى مطَاعٌ] تطيعه حتَّى تترُكَكَ العلم، ولهذا قال ذَاك الشَّاعر:

إذا كان يؤذيك حرّ المصِيف ... ويُبْسُ الخريف وبَرْدُ الشتا

ويُلهيك حُسنُ زمانِ الربيع ... فأخذك للعلم قل لي: متى؟

فإذا كان الإنسان مشتغلًا بما يُسمَّى بالمناظر الخلَّابة، أو بالرَّحلات المُطلِبة، أو بأشياء لَا قيمة لها وإن كانت من جنسِ المُباحات ويترك العلم، ولهذا النَّاظم - رحمه الله - من بديع أقواله أنَّه ما

سيذكُره في هذه الأبيات:

وَمَهـا اِفـتَـضَّ أَبـكـارَ الـغَـواني ... فَـكَـم بِـكـرٍ مِـنَ الحِـكَـمِ اِفتَضَضتا

فستأتي معنا هذه الحلاوة التي سيذكرها النَّاظم – رحمه الله –.

[وَلَم يَشغَلكَ عَنهُ هَوى مطاعٌ] هوى تهواه، [وَلا دُنيا بِزُخرُفِها] الزُّخرف هو نوع من الزِّينة يُزخرف به الشَّيء من ذهبٍ أو فِضَّة أو زُبرجد أو أي شيءٍ يُلهي، فهذه الدنيا لأنَّها دنيئة نازلة لا قيمة لها من الدَّناءة، فإِنَّ الله وصفها بالزُّخرف في مواضع ووصفها بالزِّينة في مواضع أخرى، لأنَّها لا تقُوم لها حقيقة بدون الزَّخارف والزِّينة الَّتي تُكمِّل نقصها، وكلُّها نقصٌ.

[وَلا دُنيا بِزُخرُفِها فُتِنتا] وما زُخرفها ؟ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾[1]، ويقول ربُّنا جلَّ في عُلاه:﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾[2]، وتأمَّلوا في قصَّة أولئك القوم الَّذين قصَّ الله خَبرهم في سورة القَلم، وكيف دخلوا في حديقتهم وعزموا على حِرمان من قصدهم، وتأمَّلوا في قصة الرَّجلين اللذين حكى الله خبرهُما في سورة الكَّهف ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾[3] تأمَّلوا في هذا، فإِنَّ الدُّنيا معبر اِعتبار.

دنـيـا تجـدِّد كـلَّ يـوم غـدْرهـا ... والـنَّـاس مـنْـهـا في عـنـيـفِ صراعٍ

يـتـنَـازعُـون عـلى رخِـيـص مـتـاعِـهـا ... وغــدًا يـفُـضُّ المـوتُ كـلَّ نِـزاع

فلو تلذَّذت بالعلم ما شغلتك الدُّنيا. [وَلا دُنيا بِزُخرُفِها فُتِنتا].

ثمَّ أكَّد هذا فقال:

وَلا أَلهـاكَ عَـنـهُ أَنـيـقُ رَوضٍ ... وَلا خِـدرٌ بِـزيـنـتِـهـا كَـلِـفـتـا

١– آل عمران: ١٤
٢– يونس: ٢٤
٣– الكهف: ٣٢

يقول «لَمَ يُلهك» مِن الإلهاء، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾[1]، فصار يُلهيك.

يقول: [وَلا أَلْهاكَ عَنهُ أَنيقُ] الشَّيء الأَنيق، الجميل، البَهي، الحَسن؛ [أَنيقُ رَوضٍ] والرَّوض هنا المقصُود بِها الرَّوضة التي يكون فيها الأشجار والأنهار وما أشبه ذلك، تُسمَّى «روضة».

[وَلا أَلْهاكَ عَنهُ أَنيقُ رَوضٍ وَلا خِدرٌ] أرادَ ولا صاحبة خِدرٍ، حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه؛ [وَلا خِدرٌ بزِينتِها] وفي نُسخة أخرى: [بِرَبْرَبِه كَلِفتا] يعني أنَّك لن تشتغل بصاحبة الخِدر مهما تزيَّنت، مهما تطيَّبت، مهما عمِلت إذا كان المقام مَقامُ علم.

وَلا أَلْهاكَ عَنهُ أَنيقُ رَوضٍ ... وَلا خِدرٌ بِزِينَتِها كَلِفْتا

ما سيذكُره بعد ذلك يحتاج إلى كثيرٍ منَ التَّأمُّل في الأبيات؛ وأوَّل المنظومة هو أساسها وأصلها، والأبياتُ اللَّاحقة هي عبارة عن شرحٍ أو توضيحٍ لها، لأنَّه قال بعد ذلك:

وَلا أَلْهاكَ عَنهُ أَنيقُ رَوضٍ ... وَلا خِدرٌ بِزِينَتِها كَلِفتا

فَقُوتُ الروحِ أَرواحُ المَعاني ... وَلَيسَ بِأَن طَعِمتَ وَلا شَرِبتا

هذا إن شاء الله تعالى نستكمل الكلَام عليه في الدَّرس القادم.

١- سورة التَّكاثر

٧*

قوت الـــرّوح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعــد:

فهذا مجلس من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على منظومة الألبيري – عليه رحمة الله ومغفرته –، وقد وصلنا إلَى قولِ النَّاظم – رحمهُ الله –:

فَـقـوتُ الـــرُّوحِ أَرْواحُ المَـعــاني ... وَلَـيــسَ بِـــأَن طَـعِـمـتَ وَلَا شَرِبـتـا

الإنسان في الدُّنيا له حياتان:

حياةٌ دُنيوية مِن الدُّنو وهو النُّزول أو الدَّناءة وهي الخِسَّة، وحياةٌ عُلويَّة وهي الحياةُ الإيمانِيَة.

فأمَّا الحياةُ الأولى فإنَّه يَشْرَكه فيها غيره منْ بَهائِمِ الأنْعام وسائِرِ ما تدُبُّ فيه حياةُ الحركة، فإنَّ هؤُلاء كلّهم يقتاتون، وهذه الحياة ما جاءت في القُرآن إلَّا بالتَّعبير عنها بالحياة الدُّنيا، كقول الرَّب تبارك وتعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾[1] وحيثما جاءت الحياة وأُريد بها هذا النَّوع من الحياة وهو مجرَّد المأكل والمشرب والمطعم فإنَّها تُقيَّد بالدُّنيا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[2]، وهذا هو النَّوع الأوَّل من الحيَاتين، فالإنسان له حياتين، ينبغي أن تعْلم هذا.

والحياة الثَّانية هي الحياة العُلوية، حياةُ الإيمان والطَّاعة والاستقامة، ولهذا الرَّب تبارك وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[3] هنا قال:﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أَليْسُوا أحياء يمشون على الأَرض ؟ يأكُلون، يشربون، يتمتَّعون ؟ بلَى، ولكنَّ الله أراد أنْ يُنبِّههُم إلى أنَّ الحياة الحقيقية الَّتي ينبغي أن تسمُو إليها هِمَمُهم وأن يتطلَّبُوها إنَّما هي الحياةُ معهُ، الحياةُ التي لا تكون إلَّا بالإستجَابة لهُ، ولذلك هنا قال:﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، ولهذا الله جلَّ جلالُه يقول في كتابه الكريم:﴿ لِيُنْذِرَ

*- لم يتم إيراد الدرس السادس نظرا لأن فيه بعض التكرار لما جاء في الدرس الخامس، عدا بعض الآثار اليسيرة.
١ – الحديد: ٢٠
٢– الحديد: ٢٠
٣– الأنفال: ٢٤

﴿مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١] يُنذر من كان حيًّا معَ أنَّ الجميع يشتركون في هذه الحياة، لكنْ من كان حيًّا حياةً فيها إقبال على الله.

ولهذا قال جلَّ وعلا في الآية الأُخرى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[٢] والنَّاس كلُّهم لهم قلُوب، لكنْ لهُ قلبٌ يعرفُ الحق، ويُقبل عليه ويستقبله، ولهذا ربُّنا تبارك وتعالى أيضًا قال في كتابه الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٣] أليس حيًّا ؟ أليس يأكل ؟ أليس يشربُ ؟ أليس يتمتَّعُ كما يتمتَّع النَّاس ؟ هذه ليستْ حياةً حقيقية، الحياةُ الحقيقيَّة قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.

ولهذا قال جلَّ وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[٤] ليس الميِّت هنا من دُفن تحت الثَّرى، وإنَّما الميِّت هنا من دُفن قلبُه وغُطيَ وقُبِر قلبه بالشَّهوات، وهنا أيضًا يقول ربُّنا تبارك وتعالَى مبيِّنًا رُوح هذه الحياة الحقيقية وأنَّه القُرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٥] فكما أنَّ روح الحياة الدُّنيا المطاعِم والمَشارب والمآكل، فإنَّ رُوح الحياة العُلوية الحياةُ الَّتي فيها تعلُّق بالله، ومعرفةٌ بالله، وحياةٌ مع الله، وقُوَّةٌ مع الله إنَّما رُوحها القرآن؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فروح القلب الحقيقي هو القرآن كلام الله جلَّ وعلا، ولهذا نبيُّنا صلَّى الله عليهِ وسلَّم يقول: (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ ربَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)[٦]، لاحظ أنَّه قال:(مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ) لأنَّ هذا هُو روح الحياة الحقيقية، روح الحياة العلوية، (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ) ما مَثله ؟ (مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)، هذا هُو المثل الَّذي ضربه النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وهكذا جاء في أحاديث أُخرى تُناسبه؛ النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الحديث يضربُ لنا هذَا المثل، فمن أَعرض عن ذِكر الله فهو ميِّت وإنْ ملَك الأرض بأَسرها، وإن مَلك الدُّنيا بأَسرها، وإن كان أثرى الأثرياء ممَّن يُشار إليه بالبنان فإنَّه ميِّتٌ في حقيقة الأَمر، ولهذا قال الله جلَّ وعلا عن الكفَّار، قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[٧] فحقيقة من أعرض عنِ الله في هذه الدُّنيا أنَّه ميِّت، ولهذا قال شيخ الإِسلام – رحمه الله تعالى –: (**إِنَّما المحبوس من حُبس قلبُه عن ربِّه**)، هذا مضمونُ ما أراد أن يُنبِّهك إليه النَّاظم – رحمهُ الله –.

١– يس: ٧٠
٢– ق: ٣٧
٣– النحل: ٩٧
٤– الأنعام: ١٢٢
٥– الشورى: ٥٢
٦– خرَّجه البُخاري
٧– محمَّد: ١٢

أقبِل على الرُّوح فاسْتكمِل فضائِلها ... فأَنت بالرُّوح لا بالجسم إِنسان

فهنا يقول: [فَقوتُ الرُّوحِ] هل قوتُ الرُّوح الفواكهُ والخضرواتُ وأنواع المأْدُبات وأصنافُ المأكولات ؟ لا، ليس هذا حياة الرُّوح.

يقول: [فَقوتُ الرُّوحِ] بلغ - رحمه الله - حتَّى قال: [أَرْواحُ المَعاني] يعني ليست المعاني فحسب الَّتي هي وجدان الإِنسان، حياتُه، معرفتُه بربِّه، لأنَّ الرُّوح لا تقوى إِلَّا بمعرفة الله، فقُوَّتُها وحياتُها وأُنسُها لا يكون إِلَّا بالله جلَّ وعلا، فيقول: [فَقوتُ الرُّوحِ أَرْواحُ المَعاني] هذا هو قوتُ الرُّوح: علمكَ بالقرآن، علمُك بالسُّنة، تعلُّمك للعلم؛ لأَنَّه قد بيَّن لكَ فيما سبق ممَّا شرحنا:

فَلَو قَد ذُقْتَ مِن حَلواهُ طَعماً ... لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاجتَهَدتا

ولعلَّكم تذكرون قول النَّضر بن شُمَيل لَمَّا قال: (**لن تجد لذَّة العلم حتَّى تجوع وتنسى جوعك**)، فهنا يقول: [فَقوتُ الرُّوحِ] الذي تقتاتهُ الرُّوح، الرُّوح لها غذاءٌ، لها حياة، ما غذاؤُها؟ ما حياتُها؟ ما طُمئنينتها؟ هذا الكتاب وهذه السُّنة وهذا العلم، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]

[أَرْواحُ المَعاني] يوم أنْ تصِل إِلى قلبكَ الفائِدة وتنزِل على قلبكَ كما ينزلُ الغيثُ على الأرض يهتزُّ قلبك ويُنبِتُ عُشبها وكلَأَها ويتفجَّر منهُ فيه أَنهارها، كما أنَّ هذا القطر الَّذي ينزِل من السَّماء على الأرض من جِهة الحسِّ تهتزُّ له وتربو وتُنبت من كلِّ زوج بهيج، كذلك قطراتُ العلم الَّتي تُرسلُها إِلى قلبك، فوائِدُ العلم تحييه، تُنعشه، تحرِّكه، تهزُّه، تُنبتُ فيه الفضِائل، تُنبتُ فيه الأَخلاق، تُنبتُ فيه التَّواضع، فهذه حقيقة القُوت الَّتي تحتاجها الرُّوح.

أقبِل على الرُّوح واسْتكمِل فضائِلها ... فأَنت بالرُّوح لا بالجسم إِنسان

ولهذا النَّاظم هنا يقولُ - وهذا من بدائِع هذا النَّظم وهذه الأبيات -: [وَلَيسَ بِأَن طَعِمتَ وَلا شَربتا] قد يستغني الإِنسان عن الطَّعام شهرًا أو يزيد - يستغني عن الطَّعام ولا يستغني عن الماء طبعًا - يستغني عن الطَّعام ولا يَحصل لهُ شيءٌ، بل بعضهم يَرى أَنَّ هذا من أَسباب الصِّحة كما فعل ذلك الشَّيخ العلَّامة الأَلباني - رحمةُ الله عليه - أربعين يومًا ظلَّ يشربُ ماء دون أن يأكل طعامًا، فقال: (**اِستفدتُ فائدتين: الفائدةُ الأُولى أنَّ الإِنسان بإِمكانِه أَن يسْتغني عنِ الطَّعام لهذه المدَّة، والثَّانية: الصِّحة الَّتي وجدتُها فِي هذه المعاملة**)، فالنَّاظم - رحمه الله تعالى - يقول:

١- الرَّعد: ٢٨

فَـقـوتُ الـــرُّوحِ أَرْواحُ المَـعـاني ... وَلَـيـسَ بِـأَن طَـعِـمـتَ وَلَا شَرِبـتـا

ما الحياةُ بهذه المطاعِم وهذهِ المشارِب وهذه اللّذائِذ، فإِنَّه يُشاركُك فيها كلُّ أحدٍ كما ذكرنا قولَ الرَّب جلَّ وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[1] والمسلم ليس أَكلهُ كما تأْكل الأَنعام، ولِذلك لهُ نيَّة في مطعمه ومشربه وملبسه ونوْمه.

ثُمَّ إنَّ النَّاظم – رحمه الله – انتقل بعد ذلك إلى بيتٍ آخر فقال:

فَـواظِـبـهُ وَخُـــذ بِـالجِـدِّ فـيـهِ ... فَـإِن أَعـطـاكَـهُ اللهُ انْـتَـفَـعْـتَـا

وَإِن أُعْـطِـيـتَ فـيـهِ طـويـلَ بـــاعٍ ... وَقـــالَ الـنـاسُ إِنَّـــكَ قَـد عَلِمْتَا

يقولُ بعدما ذكرتُ لكَ من فوائد العلم وثمراته وأنَّـــه:

الـعَـضـبُ المُـهَـنَّـدُ لَـيـسَ يَـنـبـو ... تُـصـيـبُ بِـهِ مَـقـاتِـلَ أَرَدْتَـا

وأنَّـــه: [كَنزٌ لا تَخافُ عَلَيهِ لِصًّا]، وأنَّـــه: [قُوتُ الرُّوحِ] إلى آخره؛ يقولُ إنْ لَم تنفعك هذه الموعظة فتصلُ بك إلى المواظبَة عليه فماذا عسى أن ينفعك ؟

فقال – رحمه الله –: [فَواظِبهُ] يعني واظب عليه، اِجتهد في الحصول عليه؛ والمواظبة معناها الملازمة، بمعنى أنَّك تُلازم العِلم لا مُجرَّد إِعطاء العلم فُضول الوقت، بل لابُدَّ في هذا العلم من إِعطاء رأْس المال في الوقت وهي المواظبة.

وأَنتم تعلمون في كثير من سير أَهل العلم وأئمَّته كيف كان حَالهم مع هذا العلم، أَليس الشَّافعي – رحمه الله تعالى – يقول: **(أَعطِي العلم كُلَّك، يُعطيك بعضه)** يعني كُن للعلم بكُلِّ حواسك ومشاعرك وجُهدك وجِهادك، فإذا أَعطيتَ العلم كُلَّك فإِنَّ العلم سيُعطيك بعضه، وهذه قضيةٌ معروفةٌ، أَمَّا أنَّنا نُعطي العِلم فُضول أوقاتنا وهي الأوقاتُ الَّتي نجلسها أَمام الشَّبكات أَو أَمام شاشات الأَجهزة وما أَشبه ذلك فإِنَّ هذا لا يُحصِّل شيئًا إِلَّا شيئًا يسيرًا إِن حصَّله، لكن المواظبة على العلم والمحافظة عليه إذا نظرنا إلى أبي هُريرة رضي الله عنه وأَرضاه لَّما قال: **(كنتُ أَلزم النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم على مِلْء بطني)** هذه مواظبة مُحافظة ليس فقط أن تنظر إلى العلم من طرف خفي إِن جاءت الفائِدة وإِلَّا فلتذهب حيث شاءت، هذا أَبُو هريرة رضي الله عنهُ – كما ذكرتُ لك – وكثيرٌ من الأَئمة – رحمهم الله وغفر لهم – كان يَذكُر من حالهِ في هذا العِلم ما يعجزُ

١ – محمَّد: ١٢

عنهُ جُموعٌ من الرِّجال في هذه الأعصار من جهة الحفظ والتَّنقير والطَّلب والرِّحلة وما أشبه ذلك، وكانوا يُسأَلون: (**كيف حصَّلت هذا العلم ؟ فيقول: ببُكُورٍ كبُكور الغُراب، وحرصٍ كحرصِ الخنزير**[1]) يعني يذكرون الحرص وما يُوَصِّل إليهم هذا العلم شيءٌ يعجَب منهُ من قرأ في تراجمهم.

وكثيرٌ من أهل العلم كان فيهم من الحرص والنَّهمة ما لا يعلمه إلَّا الله، ولهذا النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام يقول: (مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا)[2] وهذه الحقيقة لابُدَّ من معرفتها، فإنَّ النَّاظم - رحمه الله تعالى - يقول: [فَوَاظِبْهُ] المواظبة، أمَّا أنَّك تطلُبُ العلم شهرًا وتتركه شهرين وتتركُه سنةً ثمَّ تأتي بعد ذلك وترجع من جديد، لا، لابُدَّ منَ المواظبة والاستمرار، وهذه المواظبة هي حقيقة العلم هي التي تُنتج العلم ولهذا قالوا: (**من ثَبت نَبت**)، وقالوا: (**من كانت بدايته مُحرقة، كانت نهايته مُشرقة**) ولهذا قال النَّاظم - رحمه الله -: [وَخُذْ بِالجِدِّ فيهِ] أي اجتهد اجتهادًا بالغًا، أعْطِي العلم كُلَّ ما تستطيع، لا أنَّك تُعطيه الأشياء التي فضلتْ عليكَ.

هذه حقيقةٌ إخواني في الله لابُدَّ أن ننظر فيها في نفوسنا، لابدَّ أن نتأمل. فالنَّاظم - رحمه الله - يقول:

فَواظِبْهُ وَخُذْ بِالجِدِّ فيهِ ... فَإنْ أَعطاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

هذا الحرص على العلم والمواظبة والجدّ والاجتهاد كان السَّلفُ - رحمهم الله تعالى - في غايةٍ منها، ولهذا يحيى بن أبي كثير - رحمه الله - لَمَّا رَوى أحاديث المواقيت في صحيح مُسلم، قال: (**لا يُنال العلم براحة الجسم**).

هذا الشَّعبي عامر بن شراحيل - رضي الله عنه ورحمه - يقولُ لَمَّا سُئل من أين لك هذا العلم ؟ فقال: (**بنفْي الاعتماد، - يعني لا يعتمدُ على أحدٍ - والسَّير في البلاد، وصبرٍ كصبر الحمار، وبُكور كبُكور الغُراب**)، وهكذا كان السَّلف - رحمهم الله -؛ ولهذا الإمام الشَّافعي - رحمه الله - يقول: (**حقٌّ على طلبة العِلم بلُوغ غاية جهدهم في الاستكثار من علمهم، والصَّبر على كلِّ عارض**) وهذه الحقائق التي ينبغي أن نتعلَّمها وأن ننظر في كلام السَّلف - رحمهم الله -.

ولهذا منَ الحِرص أنَّ الشَّعبي - رحمه الله - يقول: (**إذا سمعتَ شيئًا فاكتبه ولو على الجدار**) اكتبه لا تتركه يذهب ولو على الجدار، لأنه يذهب وينقضي عنكَ، ولهذا كانوا يجلسون اللَّيالي

١- [الخنزير]: أضفتُ هذه الكلمة ليتمَّ بها الأثر؛ أمَّا في التَّسجيل فالشَّيخ - حفظه الله -لم يُكمله.
٢- في صحيح الجامع

الطّوال يقرؤُون كُتب الحديث وكُتب السُّنة ويتداولونها فيما بينهم.

فالنَّاظم – رحمه الله – يقُول:

فَواظِبهُ وَخُذ بِالجِدِّ فيهِ ... فَإن أَعطاكَهُ اللهُ انْتَفَعْتَا

من الَّذي يُعطي العلم ؟ كيفَ يُنال العلم ؟ كيفَ يُحصَّل العلم ؟ إنَّما الله جلَّ وعلا هو الَّذي يُعطيه من يشاء من عباده، ولهذا قال لنبيِّه عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[1] وقال عن آدم:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسمَاءَ كُلَّهَا ﴾[2] وقال عن الخضر: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[3] وقال في داود وأهله:﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فمن اعتقَد أنَّه يُحصِّل العلم بجُهدِه أو باجتهاده أو بسهره أو بحِرصه في معزلٍ عن الاعتماد على الله وطلبه فإنَّ أوَّل ما سيجني عليهِ اجتهاده:

إذا لَم يـكُن عـونٌ مـن الله للفتى ... فـأوَّل مـا يـقضي عليه اجتـهاده

فلابدَّ أنْ تعلم أنَّ ما عندك من العلم إنَّما آتاك الله إيَّاه ولو شاء لسلبهُ منك، وأَخذه منك، ولم يبقَ معك منه شيء.

[فَإن أَعطاكَـهُ اللهُ انْتَفَعْتَا] أنت بذلتَ الأسباب الَّتي تُوصلك إلى العلم، أخذت بالأسباب منَ السَّهر والإجتهاد والحفظ والتَّنقيب والتَّنقير والحِرص، فأعطاكهُ الله اِنتفعت، فإذا اِنتفعتَ بهذا العلم فإنَّ هذا هو العلم النَّافع [...][5]

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾[6]، النَّاظم – رحمه الله تعالى – يقول: [فَإن أَعطاكَـهُ اللهُ انْتَفَعْتَا] لاحِظ هنا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان من دُعائه: (اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك مِن عِلْمٍ لَا يَنْفَع) فكان النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يتعوَّذ من العلم الَّذي لا ينفع.

كما قلتُ لك العلم الَّذي لا ينفعُ لهُ جهتان:

١– النساء: ١١٣
٢– البقرة: ٣١
٣– الكهف: ٦٥
٤– الأنبياء: ٨٠
٥– اِنقطاع في الصَّوت: من الدَّقيقة ٢٢:١١ إلَى الدَّقيقة ٢٣:٥٣ تقريبًا.
٦– الأعراف: ١٧٥

الجهة الأولى: أن يكون علمًا لا ينفع فِي حقيقته، وهو العلمُ المذمُوم، كعِلم السِّحر والنُّجوم وما أَشبه ذلك.

الجهة الثَّانِيَة: علم هو نافعٌ في حقيقته وذاته، فإنَّه نافعٌ إلَّا أنَّ صاحبهُ لا ينتفع به؛ فلابدَّ أن يجتمع هذان الأمران: بأن يكون العلم نافعًا وبأن ينتفع به صاحبه لأنَّه قد يكون نافعًا لكنَّ صاحبه لا ينتفع به، ولهذا النَّاظم هنا يقول: [فَإِن أَعطاكَـهُ اللهُ انْتَفَعْتَا].

نأْخذ بيتًا ونختِم بــه:

وَإِن أُعْـطِـيــتَ فـيـهِ طُــولَ بـــاعٍ ... وَقـــالَ الـنـــاسُ إِنَّـــكَ قَـد سَبَقتا

لا، الأحسن أن نُؤَخِّرهُ لأَنَّ له أبياتًا مُتعلِّقة به.

وأنبِّه هُنا أنَّه ربَّما يكونُ في أَوَّل هذه المنظُومة نوعُ طولٍ منَ الشَّرح لأَنَّنا مُحتاجون لما في أوَّلها، والأَبيات الَّتي فِي آخرها ربَّما لا يستغرقُ البيتُ الدَّقيقة أو أكثر بقليل، بسببِ أَنَّها ترجع إِلى الأَبيات المتقدِّمة، فإِنَّ النَّاظم – رحمه الله تعالى – شحن أوَّلها شحنًا عجيبًا بالفوائد والنَّصائح والمواعظ، جزاه الله خيرًا ونفعنَا الله وإيَّاكم بالعلم، وجعلنا وإيَّاكم ممَّن يستمعُ القول فيتَّبع أحسنه فهو ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبينا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

٨

العمل بالعلم والزهد في الرياسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين؛ أمَّا بعــد:

فهذا مجلس من المجالس المُنعقدة في التَّعليق والشَّرح على نظم الألبيري – رحمه الله تعالى –، وقد أخذنا طرفًا من هذه الأبيات العظيمة التي ذكرها المصنِّف – رحمهُ الله – وقلنا بأنَّ بعضها يحتاج إلَى كلامٍ كثيرٍ وبعضها قد يحتاج إلى شيء من التَّعليق؛ وكان في آخر ما قرأنا من هذه المنظومة:

فَقوتُ الرُّوحِ أَرْواحُ المَعاني ... وَلَيسَ بِأَن طَعِمتَ وَلَا شَرِبتا

فَواظِبهُ وَخُذ بِالجِدِّ فيهِ ... فَإِن أَعطاكَهُ اللهُ انتَفَعْتا

أخذنا إلَى هُنا؛ ثُمَّ قال:

وَإِن أُعْطِيتَ[1] فيهِ طَويلَ باعٍ ... وَقالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَد عَلِمتا[2]

فَلَا تَأمَن سُؤالَ اللهِ عَنهُ ... بِتَوبيخٍ عَلِمتَ فَهَل عَمِلتا

هنا النَّاظم – رحمه الله تعالى – يتوجَّه إلى من كنَّاه بأبِي بكر فيقول له إذَا بلغتَ في العلم شأْوًا ونظر النَّاس إلى طُولك وطول باعِك في العلم فرأوك في الأعالي وأشَاروا إليك بالبنان وصرتَ تُعرف في المشارق والمغارب ورأَست النَّاس فصِرت مرجعًا لهم فإنَّك والحالة هذه لم تنته مُهمَّتك في هذه الحياة الدُّنيا بل ما اِزدادت مُهمَّتك إلَّا تعقيدًا، فإنَّ الواجب عليك أنْ تَعرف حق العلم عليك، ومن أَعظم حُقوق – بل هُو أعظمها – العملُ به، لأنَّه لا نجاة للعالِم فضلًا عن غيره، لا نجاة لأهل العلم كلِّهم فيما حملوه من العلم قليلًا أو كثيرًا وما بلغهُم من الحجَّة إلَّا أَن يكون لهم جواب عند الله عن هذا العلم ماذا عملوا به.

وهذه هي الثَّمرة التي يُراد لَها العلم، فإنَّها ثمرةُ العلم العمل، وقد عَدَّ الهيثمي في «الزَّواجر عن اِقتراف الكبائر» عدَّ عدم العمل بالعِلم من الكبائر.

١– وفي نسخة: [وإِنْ أُوتيت فيه طُول باع]
٢– وفي نُسخةٍ: [وَقَال النَّاس إنَّك قد سَبقْتَا]

وفي نظم «الزُّبد» المشهور عند الشَّافعية:

وعـــالِمٍ بـعـلـمـه لم يـعـمـلـن ... مُـعـــذَّب مــن قـبـل عـبّــاد الـوثـن

وقد جاء في السُّنن من حديث أبي بَرزة، أنَّ النَّبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم قال: (لاتزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسألَ عن أربعٍ : عن عُمرِه فيما أفناه ، وعن عِلمه ماذا عمل فيه ، وعن مالِه من أين اكتسَبه ، وفيما أنفقَه ، وعن جسمِه فيما أبلاه)[١]، والنَّاظم يُشير إلَى هذا: [بِتَوبيخِ عَلِمتَ فَهَل عَمِلتا] فلا تأْمن سُؤال الله عنهُ وإن كُنت من أهل العلم الأكابر الذين بلغُوا في العلم مراتِب ربَّما قلَّ من يبلُغها، فإنَّك مسؤولٌ عن هذا العلم بينَ يدَي الله جلَّ وعلا، ولهذا الرَّب تبارك وتعالَى قال في كتابه الكريم:﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٢] هذا في حقِّ اليهود، وقال جلَّ وعلا في كتابه الكريم: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[٣]، وقد جاء في [صحيح مسلم] من حديث أُسامة بن زيد حِبِّ رسول الله وابن حبِّه أنَّه قال عليهِ الصَّلاة والسَّلام: (يُؤتى بالرجل يومَ القيامةِ . فيُلقى في النارِ . فتندلِقَ أقتابُ بطنِه . فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحى . فيجتمع إليه أهلُ النارِ . فيقولون: يا فلانُ ! مالَكَ ؟ ألم تكن تأمرُ بالمعروفِ وتنهى عن المنكرِ ؟ فيقول : بلى. قد كنتُ آمُرُ بالمعروفِ ولا آتيه ، وأنهى عن المنكرِ وآتيه) وهذه منزلة قبيحة لمن أَمكنه العمل بالعلم ولم يعمل به.

والعلَّامة حافظ حكمي – رحمه الله تعالى – يقول في ميميَّته المشهورة:

يــا طــالــب العلم لا تبغِي بــه بــدلًا ... فقد ظـفـرتَ وربِّ الـلَّــوح والقلم

وعـظِّـم العلم واعــرف قـدر حرمته ... في الـقـول والفعل والآداب والقِيَم

أبو الدَّرداء رضي الله عنه يقول: (**ويلٌ للذي لا يعلمُ مرَّة، وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعمل سبعَ مرَّات**)[٤].

والسَّلف كانُوا يُعجبهم التَّواضع وهضم النَّفس، الشَّعبي – رحمه الله – عامرُ بن شرَاحيل الإمام المعروف، يقول: (**إنَّا لسنا بالفقهاء، ولكنَّا سمعنا الحديث فرويناه، ولكنَّ الفُقهاء من إذا علِم عمل**)، ولهذا ابن القيِّم – رحمه الله تعالى – في «إعلام الموقعين» يقولُ بأنَّ الإجماع مُنعقدٌ على

١– قال فيه الألباني في «اقتضاء العلم»: إسناده صحيح.
٢– البقرة: ٤٤
٣– الصَّف: ٢\٣
٤– ذكر ذلك الذَّهبي عنه في «سِيَر أعلام النُّبلاء».

أنَّ الفقيه لا يُسمَّى عالمًا حتَّى يعمل بعلمه؛ ولهذا قال الحسن البصري: (**كان الرَّجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشُّعه وزُهده ولسانه وبصره**)، ومثلُ هذا النَّفَس كثيرٌ في كلام الأئمَّة – رحمهم الله تعالى –، ولهذا صحَّ عند طائفة من أهل العلم قولهُ عليه الصَّلاة والسَّلام: (مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيُحْرِقُ نَفْسَهُ)[1]؛ والشَّاهد من هذا كلِّه أنَّ طالب العلم يحْرِص على العمل، وقد كان السَّلف يقولون: (**كنَّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به**)، وجاء عن علي رضي الله عنه وعن ابن المنكدر أنَّه قال: (**هتَف العِلم بالعمل، فإنْ أجابهُ وإلَّا اِرتَحل**)، ولهذا في وصايا عليٍّ رضي الله عنه لكُمَيل بن زياد أنَّه قال: (**العلم يزكُو على العمل**) أراد أنَّ العلم يُنمِّيه العمل ويُرسِّخه، لأنَّ العمل هو ثمرة العِلم، ولهذا جاء مرفوعًا – كما ذكرنا من قبل – وإن كان الصَّحيح فيه أنَّه لم يصح مرفوعًا وإنَّما هو في بعض الآثار: (**من عمِل بما علِم، أورثه الله علم ما لم يعلم**).

ثمَّ قال النَّاظم – رحمه الله –:

فَــرَأسُ الـعِـلـمِ تَـقـوى الله حَـقًّـا ... وَلَـيـسَ بِـأَن يُـقـالَ لَـقَـد رَأَسـتا

يقول هنا رأسُ العلم، حقيقةُ العلم، ماهية العلم: التَّقوى وهي الخَشية والخوفُ من الله تعالى؛ ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: (**ليس العلم عن كثرة الرِّواية، وإنَّما العلم خشية الله تبارك وتعالى**)، والتَّقوى هي وصيَّة الله جلَّ جلاله للأوَّلين والآخرين: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾[2]، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: (**التَّقي مُلجم لا يفعل كلَّ ما يريد**).

ولَّما خطَب طَلق بن حبيب[3] يومًا النَّاس قال: (**تجنَّبوا هذه الفتن بتقوى الله، قالوا: وما التَّقوى؟ قال: العمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نورٍ من الله تخشى عقاب الله**).

والحسن البصري – رحمه الله – يقول كما ذكر عنه الحافظ ابن رجب وجاء هذا عن غيره كسعيد بن جُبير – أي قولُه هذا – أنَّه قال: (**مازالت التَّقوى بالمتَّقين حتَّى تركوا كثيرًا من الحلال خشية**

١– قال فيه الشيخ العلَّامة الألباني – عليه رحمة الله – في «صحيح الترغيب والترهيب»: (**إسناده حسن إن شاء الله**).
٢– النِّساء: ١٣١
٣– من كبار التابعين سمع عن جمع من الصحابة..

الوقوع في الحرام) يقول هنا: **(مازالت التَّقوى بالمتَّقين)** يعني أنَّه جعل التَّقوى مثل الحادي الَّذي يحدُو ويُنادي، فما زالت التقوى تناديهم وتُخاطبُهم وتحمِلهم على المكارم والفضائِل حتَّى تركُوا التَّوسُّع في المباحات والتَّوسُّع في الحلال خشية أن يلتذُّوا به ويركنوا إلى الدُّنيا فيقعُوا فيما يشبهه أو يقودُ إليه وهو الحرام، فمنزلةُ الورع منزلة عظيمةٌ.

النَّاظم – رحمه الله تعالى – هنا قال:

فَـــرَأسُ الـعِـلـمِ تَـقـوى الله حَـقًّـا ... وَلَـيـسَ بِـأَن يُـقـال لَـقَـد رَأَسـتـا

يعني ليس العلم أن يُقال هذا العالِم الفُلاني، الإمام الفُلاني، هذا المقدَّم، هذا الوَجيه، وهكذا من مِحْنة الألقاب التي أُولع بها العصريُّون، ومن أَزمنة لا بأس بها مُتقدِّمة أُولع النَّاس بالأَلقاب، ومن اِعتنى بكتب أهل الحديث رأى ما كانوا عليه منَ التَّواضع وعدم الاِعتناء بهذه الأَلقاب مطلقًا لا في أَنفسهم ولا في أَشياخهم، اقرأ مُسند الإمام أحمد من أوَّله إلى آخره، وقدْ ذكرَ فيه – على بعض التَّرقيم – ثلاثين أَلف حديث، لم يصِف أيًّا ممَّن روَى عنهم، وقد رَوى عن جبالٍ وأئِمَّة كبارٍ، لَم يصِفهم ولَم يُلقِّبهم بأي شيء منَ الأَلقاب.

نحن لا نُحرِّم هذه الأَلقاب، لكن أَن تكون هي الهمُّ، أن يكُون الإنسان إذا لَمْ تُذكر في حقِّه: فضيلة الشَّيخ، والشيخ الفاضل، والأستاذ الدُّكتور، والمقرئ والمسنِد والمحدِّث والفقيه والعلَّامة وإمام الثَّقلين، إلى ما أشبه ذلك من الألقاب، هذه لَا تجدها عند أئِمَّة الحديث، وأصحاب الكتب السِّتة نفسُ الشَّيء، حدَّثنا يحيى قال حدَّثنا مكِّي بن إبراهيم قال حدَّثنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه؛ حدَّثنا محمد بن منكدر حدثنا بندار حدَّثنا غُندر حدَّثنا شُعبة، كلُّهم لم يكن عندهم ذلك الإعتناء بالألقاب لأنَّه لَّما كثُر عِلمهم وعرفوا العلم على الحقيقة هانت في نُفوسهم هذه الأَلقاب ولَّما قلَّ [العلم صار][1] يُغضب ممَّن يسلبنا إيَّاها؛ فهنا النَّاظم يُشير لنا إلى هذه القضيَّة المهمَّة، ولأهمِّية هذا البيت في نظري – والله أعلم – فلنتأمَّل بعض الآثار العظيمة التي كان عليها السَّلف – رحمهم الله –: سُفيان الثَّوري كما عند الآجري في «أخلاق العلماء» وعند الخطَّابي في «العزلة والخلطة» سفيان الثوري يروي عن أبيه قال: **(أتيْتُ إبراهيم النَّخعي في شيء فقال: يا أبا سعيد ما كان بيني وبينك أحدٌ يشفيك من هذا – يعني لم تجد غيري – احتِيج إلَيَّ احْتيج إلي!)** – إبراهيم النَّخعي ينعى على نفسه يقول: احتاج النَّاس إلَي احتاج النَّاس إلَيَّ – يقول: **(إنَّ دهرًا صرتُ فيه فقِيه أهل الكُوفة**

١– هي من إِضافتي كي أُتمِّم بها مضمون كلام الشَّيخ – حفظه الله–؛ لعدم وضوح الصَّوت في التسجيل بسبب بعض التقطُّعات – من الدَّقيقة ١٤:٠٥ إلى ١٤:١٠

لدهر سُوء) يقول هذا وهو فقيه أهل الكوفة، وهو من أصحاب ابن مسعود – يعني من تلاميذ التَّلاميذ الَّذين أخذوا عن مدرسته –؛ وهذا مُحَمَّد بن عبد الأعلى الصَّنعاني يقول: **(خرج علينا سُفيان بن عُيينة ونحن جلوس على باب داره)** – يعني هم طُلَّاب العلم، وكانت عادتَهم الملازمة الشَّديدة لشُيوخِهم حتَّى ربَّما أضجروهم وتألَّموا منهم، فمحمَّد بن عبد الأعلى هذا الصَّنعاني يقول –: **(خرج علينا سفيان بن عيينة ونحن جلوس على باب داره)** – ما الَّذي ينتظِرونه ؟ يوزِّع عليهم الدَّراهم والدَّنانير ؟ لا، يُريدون أن يسمعوا حديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلم – يقول هذا محمَّد بن عبد الأعلى الصَّنعاني –: **(خرج علينا سفيان بن عيينة ونحن جلوس على باب داره فقال:**

خـلَـت الـدِّيـار فـسُـدْتُ غـير مُـسَـوَّد ... ومـن الـشَّـقـاء تَـفـرُّدي بـالـسُّـؤْدد)

ثم ذكر الخطَّابي في «العزلة» بعد أن ذكر هذا البيت، قال: **(وأنشدَني إبراهيم بن فِراس في نحو من هذا:**

وإنَّ بـقـوم سـوَّدوك لـحـاجـة ... إلى سـيِّـد لـو يـظـفـرون بـسيِّـد

فقال آخر في نحوه – ولازال الكلام للخطَّابي –:

ومـا سـدت فيهم أنَّ فضلك عمَّهم ... ولـكـنَّ هـذا الـحـظّ في الـنَّـاس يُقسم)

والرِّياسة وطلبها والحرص عليها مضيَعة للعلم وذهابٌ له، ولهذا جاء عند البُّخاري معلَّقًا عن عمر رضي الله عنه – وصله ابن أبي شيبة بسند حسن كما قال في «الفتح» – أنَّه قال: **(تفقَّهوا قبل أَن تُسوَّدوا)** ولهذا ذكر في «الفتح» أنَّه في رواية الكشميهني للبخاري أنَّ البُخاري قال: **(وبعد أن تُسوَّدوا)** قال الخطَّابي: **(يُريد أنَّ من لَم يَخدم العلم في صغره اِستحيى أن يخدمه في كبر السِّن وإدراك السُّؤدد)**، وقال سُفيان الثَّوري – كما ذكر الخطابي أيضًا –: **(من ترأس في حدَاثته كان أدنى عُقوبته أنْ يفُوته حظٌّ كبيرٌ من العلم)**، وعن أبي حنيفة – رحمة الله عليه – أنَّه قال: **(من طلب الرِّياسة بالعلم قبل أوانه، لَم يزَل في ذلٍّ ما بَقي)**.

أنشدنا أبو سُليمان – أبو سُليمان يعني الخطَّابي طبعًا – قال: أنشدني سهل بن إسماعيل، قال: أنشدنا منصور بن إسماعيل لنفسه:

الـكـلـبُ أكـرمُ عِـشـرهْ ... وهُـو الـنِّـهـايـة في الخَـسـاسـهْ

مِمَّـــن يُـــنَـــازِعُ فِي الـــرِّيَـــاسَـــةْ ... قَـبْـــلَ أوقَـــاتِ الـــرِّيَـــاسَـــةْ

وقيل للمبرد: (لِم صار أبو العبَّاس أحفظ منك للغريب والشِّعر ؟ – يعني أحمد بن محمد بن يزيد بن يحيى – قال: **لأنِّي ترأستُ وأنا حدث وترأس وهو شيخ**)، ولهذا سُفيان بن عُيينة يقول: (**جلسنا إلى عُبيد الله بن عمر العُمري فأحطنا به فنظر إلينا فقال: شِنْتم العلم وذَهبتم بنوره، لو أدركني وإيَّاكم عُمر رضي الله عنه لأوجعنا ضربًا**) قال المُظفَّري: (**وزادني غير عَمْر: ما أنا أهل لأن أُحدِّث ولا أنتم أهل لأن تُحدَّثوا، وما مثلي ومثلكم إلَّا كما قال الأوَّل: افتضحوا فاصطلحوا**).

وهذا الزَّهري محمد بن شهاب يقول عن رجلٍ من المهاجرين، قال: (**والَّذي نفسي بيده لقد وَارتِ القُبور أقوامًا لو رأوني معكُم سخروا منِّي**).

طالب العلم لا يكون همُّه أن يكون عالمًا، ليس من شرط العلم أن تكون عالمًا، أن تكُون مؤلفًا، أن تكون مُحاضرًا، أن تكُون مدرِّسًا، الإمام مالك يقُول: (**طلبت العلم لنفسي وكذلك كان النَّاس**)، لتكن همَّتك هي الوصُول إلى رضا الله جلَّ وعلا، تعْرف ما أمر الله تبارك وتعالى به، وتعْرفُ ما نَهى الله عنه، لأنَّ طلب الرِّئاسة سبيل للإحداث في الدِّين:

أخـــي مِـــن عشق الـرِّئـاسـة خـفـتُ أنْ ... في الـدِّيـــن يُحْـــدث بـدعـةً وضلالة

ولقد حرص أقوام على الرِّياسة فداسوا على كرامة العلماء وحاربوهم وبارزُوهم لأنَّهم رأوا أنَّهم لَم يُعطوا هذه الرِّئاسة ولم يصلُوا إليها، فأرادوا أن يُزحزحُوا هؤلاء العلماء من طريقهم حتَّى يصلُوا إلى مكانهم، وهذا هو الضَّلال المبين نسأل الله العافية والسَّلامة.

طالبُ العلم همُّه رضا الرَّب جلَّ جلالُه، طالبُ العلم يعلم أنَّ حقيقة العلم ما أوصله إلى خشية الله جلَّ وعلا، ما أوصله إلى العمل بطاعة الله تبارك وتعالى؛ ثمَّ من وفَّقه الله جلَّ جلاله وواصلَ العِلم ومَنَّ الله تبارك وتعالى عليه بأن صار إمامًا في النَّاس واحتاج النَّاس إِليه وصار موجِّها وإمامًا لهم، فإنَّ هذا شيءٌ حسنٌ لأنَّه جاء تبعًا، أمَّا أن يكون هو القصد كَمن يتعلَّم العلم ليكُون قاضيًا أو عالمًا أو موجِّهًا ثُمَّ بعد ذلك لا يَحمله العلم على طاعة الله – نسأل الله العافية والسَّلامة – فإنَّ هذا نوعٌ من الضَّلال – عياذًا بالله – أو منَ الأُمور الَّتي تُوصل طالب العِلم إلَى نوعٍ منَ الضَّلال.

وقد ذكرتُ لكم أنَّ من حرص على الرِّئاسة قادته إلى البدعة، وقَلَّ مَن يَسلم مِنْ هذا مَن أرادها.

جاء في أثر في ذكر الخوارج أنَّه يأتي على النَّاس زمانٌ يقرأ النَّاس العلم فيقوم شخصٌ فيقول:

(... ما للناس لا يتَّبعوني وقد قرأتُ القرآن؟ ما هم بمتبعيَّ حتَّى أبتدعَ لهم غيرَه، **فإيَّاكم وما ابتُدعَ؟ فإن ما ابتُدِعَ ضلالةٌ)**[1] هذا ممَّا يحمل الإنسان على الرِّياسة لأنَّه إنَّما طلب العلم بهذه الغاية فلم يُحصِّلها فقاتل النَّاس عليها، فالله الله في معرفة هذه الوصايا العظيمةِ الجليلة:

فَـلا تَـأمَـن سُــؤالَ الله عَـنــهُ ... بِـتَـوبـيـخٍ عَـلِـمـتَ فَـهَـل عَمِلتا

فَــرَأسُ الـعِـلـمِ تَـقـوى الله حَـقًّـا ... وَلَـيــسَ بِــأَن يُـقـالَ لَـقَـد رَأَسـتـا

نكتفي بهذا القدر في هذه المنظومة، ونسأل الله جلَّ جلاله أن يوفِّقنا وإيَّاكم لِمحابِّه ومراضيه فإنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه؛ والحمدُ لله رب العالمين.

يجدر التنبيه إلى أن الشرح لم يشمل المنظومة بأكملها

١- في سننِ أبي داود، قال فيه الألباني رحمه الله (إسناده صحيح موقوفا) ونصه: (حدَّثنا يزيدُ بنُ خالدِ ابنِ عبد الله بن مَوْهَب الهَمْداني، حدَّثنا الليثُ، عن عُقَيل، عن ابنِ شهاب، أن أبا إدريس الخولانيَّ عائذَ الله أخبره أن يزيدَ بنَ عَمِيرةَ -وكانَ من أصحاب معاذ بن جبل- أخبره، قال: كان لا يجلس مجلساً للذكر حين يجلس إلا قال: الله حَكَمٌ قِسْطٌ، هلك المُرتابون، فقال معاذ بن جبل يوماً: إن مِنْ ورائكم فِتَناً يكثُرُ فيها المال ويُفتح فيها القرآنُ حتى يأخُذهُ المؤمنُ والمنافقُ والرجلُ والمرأة، والصغيرُ والكبيرُ والعبدُ والحرُّ، فيوشِكُ قائلٌ أن يقول: ما للناس لا يتَّبعوني وقد قرأتُ القرآن؟ ما هم بمتبعيَّ حتَّى أبتدعَ لهم غيرَه، فإيَّاكم وما ابتُدعَ؟ فإن ما ابتُدِعَ ضلالةٌ، وأحَذرُكُم زَيغَةَ الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق، قال: قلت لمعاذ: ما يُدريني -يرحمك الله- أن الحكيمَ قد يقول كلمةَ الضلالةِ، وأن المنافقَ قد يقول كلمةَ الحق؟ قال: بلى، اجتَنِبْ من كلام الحكيم المُشتهِرَاتِ التي يُقالُ ما هذه، ولا يَثْنِيَنَّكَ ذلك عنه، فإنه لعله أن يُراجِعَ، وتَلَقَّ الحقَّ إذا سمعتَه فإن على الحقِّ نوراً).